جاك بولان

قلب الحوت الأزرق

رواية

ترجمة:
د. محمد عبدو النجاري

جاك بولان

قلب الحوت الأزرق

«رواية»

ترجمة: د. محمد عبدو النجاري
مراجعة: الشيخ توفيق الحسيني

قلب الحوت الأزرق

Jacques Poulin

Le coeur de la baleine bleue

Roman

TRADUCTION: DR. MOHAMMAD NAJARI

دار الـحـصـاد، سـوريـة، دمشـق

Édition Al-Hassad - Syrie - Damas

Fax: 2126326 C. P: 4490

ص.ب: 4490 ها/فا: 2126326

* تصميم الغلاف: سامر النجاري.



Conseil des Arts du Canada Canada Council for the Arts

"Ce livre a reçu une subvention du Conseil des Arts Du Canada Et du Ministère des Affaires étrangères et du Commerce international du Canada".

Titre original: Le coeur de la baleine bleue

Auteur: Jacques Poulin

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DU QUÉBEC

Dépôt légal: troisième trimestre 1994

الكاتب في سطور:

ولد جاك بولان في الثالث والعشرين من شهر أيلول سنة 1937، في «سان - جيديون - دي - بوس» في مقاطعة «كيبيك» في كندا.

عاش مدة طويلة في باريس، ثم استقر في «كيبيك» مارس، بعد إنهاء دراسته الجامعية، الترجمة قبل أن يتفرّغ كلية للكتابة. يتجنّب استخدام الأساليب المنمقة. كتب حتى الآن، عشر روايات. نال جوائز محلية وعالمية.

رواية «قلب الحوت الأزرق» هي الرواية الثانية التي نترجمها لجاك بولان، بعد روايته «فولز ڤاغن بلوز» التي ترجمناها إلى العربية تحت عنوان «أنشودة رحلة حزينة».

فيما يلي مقتطفات نقدية عن «قلب الحوت الأزرق»: مأخوذة من كلمة ناشر الطبعة الكيبيكية الأخيرة (1994) ومن مقدمة «بيير فيليون» لتلك الطبعة.

كلمة الناشر

تعدّ رواية جاك بولان «قلب الحوت الأزرق» قصة قلب[1]، و«سفر صوب القطب الداخلي» حسب التعبير الرائع لـ «أندريه بريتون» في آن واحد.

يُزرع قلب فتاة يافعة لبطل الرواية «نويل»، الذي يبدأ نقاهته في «ڤيو-كيبيك»[2] حيث يكشف لنا الطرقات التاريخية والمواقع الرئيسية المشوّقة.

يظهر، موازياً للعالم الداخلي الذي يصوره لنا المؤلف مفعماً بالرقّة، بُعْد عالم آخر واقعي تماماً، يبذل الكاتب جهده بغية مصالحته مع الأول. من هنا تنبع الأهمية التي يوليها جاك بولان، بقدر ما تتنامى قصته، للأحلام والذكريات، لا سيما ذكريات الطفولة. إنه يتعلم، شيئاً فشيئاً، التعرف إلى نفسه والخروج من عزلته والتوجّه إلى الآخرين، الأمر الذي يشجع لقاءه بـ «شارلي ـ الحوت الأزرق» التي تقوده إلى نهاية ذاته وكذا نهاية الأشياء ـ ويتضح، حينئذ أن الموت، بالنسبة إلى أكبر مريض زرع له الدكتور «غروندان» قلباً، هو «آخر مرحلة من مراحل الرقّة (...) إنه الرقّة المطلقة».

---

(1) يستخدم الكاتب، في سياق الرواية، هذا التعبير بمعنييه، المجازي: قصة حب، والمباشر: قصة قلب. م.

(2) مدينة كيبيك القديمة. م.

قلب الحوت الأزرق

بقلم: بيير فيليون

جاك بولان، كاتب صبور.

يكتب لنا منذ خمس وعشرين سنة، ويرمي لنا كتبه كما يرمي الزجاجات في اليم - نحن جيرانه على الضفة الأخرى لنهر الكلمات - ويدعها تنقاد، في نفوسنا وفق مد الأعمار وارتدادات القلب.

خمس وعشرون سنة من التجوال على الطرقات ومن اندحار الروايات التي يعري بها الكاتب صمته الخاص.

لقد علمنا جاك بولان الصبر.

ثماني[1] روايات في غضون خمس وعشرين سنة وسلسلة جوائز وقراء خلّص، وكتمان كان في وسعه أن يصير مثل كتمان كاتبنا «ريجان دو شارم» لو كان ممكناً، حسب أعرافنا الأدبية، احتجاب آخر. ولكنه قبل كل شيء، أثرٌ، ترسّخ في نفوسنا وكأنه كان موجوداً دائماً. وهذه ميزة الأثر الكلاسيكي الذي يكون، كما يقول «غاستون ميرون» معاصراً في كل العهود، وحديثاً في زمنه، ويترك انطباعاً بأنه مكتوب منذ الأزل.

---

(1) صارت، الآن، عشر روايات. م.

ولما كان جاك بولان، واحداً من أبطأ الروائيين الكيبيكيين، نعود نحن جيرانه، بعد مرور الأيام، بهدوء، إلى كتبه الأولى، وكأن الزجاجات القديمة التي ألقيت في البحر، في بداية السبعينيات، ترجع إلينا، بعد جولة عجيبة حول العالم. كذلك، تطفو اليوم، رواية «قلب الحوت الأزرق» على السطح، وكذلك تكون قراءتها أكثر ساحرية من أي وقت آخر: يتوقف الزمن. نستقل، بدورنا، زجاجة ـ بسبب تغير مفاجئ للأمور ـ ونمخر النهر برفقة القبطان «بولان» على متن سفينة القصة الشعرية الأنغام، حابسين أنفاسنا كي لا نفوّت الكلمات الرقيقة التي تروي هذه القصة.

«قلب الحوت الازرق»، قصة حب. قيل عنها ذلك ولا يزال، حتى صارت أشبه بأسطورة: تلازم أدبنا، نستشيرها، نعود إليها، نتذكرها، نرويها، نستشهد بمقاطع منها، ندرسها، نفسّر رموزها ونواياها الخفية.

«قلب الحوت الازرق» قصة قلب، لأنها تتعلق بالدرجة الأولى بعملية ازدراع قلب فتاة يافعة للكاتب «نويل». عملية مثالية، إذ صار يُلحظ، في هذا الكائن الحساس والمبدع، اتحاد قطبي الوضع البشري، وحجتي الطاقة العاشقة والحيوية، ولكنها كذلك عملية مقلقة: إذ يحس رجل بأن عصفوراً ـ عضلة ـ خاصاً بامرأة، يخفق في صدره، في المكان ذاته، من حيث انبثقت ولاتزال تنبثق كلمات حياته، مشتهاةً، ومعاشة وغامضة ومنفعلة وأحياناً حزينة.

كيف يعيش «نويل» تقمصاً من هذا النوع في حياته؟ ماذا يصير؟ كيف يتآلف مع الخوف من الرفض، هذا الحيوان الماكر؟ كيف يرفرف القلب بجناحي شخصية أخرى؟ هل زرع الدكتور «غروندان» روح الأخرى في الوقت ذاته؟ وهذه الأخرى، ألم تكن موجودة، قبلاً، في

«نويل»؟ ها هو ذا العديد من الأسئلة التي ستبقى أسئلة حتى نهاية القصة، لأن الرواية ليست جواباً.

قصة ثانية تسير متوازية مع الأولى وتندمج معها بحركة متعمدة. هذه القصة الثانية نعرفها من خلال جملة قصيرة: «إنها قصة قلب»، تتطور بمنهجية متتالية مع الأولى ثم تصير سطرين فأربعة أسطر فمقطعاً قصيراً فصفحة كاملة الخ... حتى مشهد النهاية الطويل. هكذا، فإن الرواية تبدأ بقصة حب (نويل وايليز) وتنتهي بقصة حب أخرى (نويل وشارلي - الحوت الأزرق) التي تحل تماماً محل القصة الأولى.

يقود هذا الخفق الطباقي، الأشبه باضطراب قلبي في إيقاع الحركة الروائية، البطل (نويل)، قليلاً قليلاً، صوب الأمور الرقيقة في الطفولة، المكان الخرافي البالغ الروعة، الذي يسميه الكاتب مستشهداً بـ «أندريه بريتون» «القطب الداخلي للذات». فالطفولة المستعادة مثل فردوس، تقفل هذه القصة المزدوجة، بينما يستلقي الكاتب ماسكاً بقنبلة على قلبه، في مستهل مسارّة لأكثر الأمور رقة - الموت. أفلا تصير الحياة مجرد طقس طويل للعبور، ما أن تغدو الطفولة شيئاً آخر في القصص التي يرويها الكاتب ليرسم، تحديداً، وجه الحب - ألم الآلام كلها؟

جاك بولان

قلب الحوت الأزرق

«رواية»

من المؤكد أننا نبلغ، في هذه العملية، تخوم الحياة... لقد قربني سفري منكم.

الأب بولونْ يِه

إنني أكتب في صدري.

بيير مورانسي

كررت إليز:

- إنه رجل.

فقلتُ:

- إنها امرأة.

رجل أو امرأة: لا سبيل إلى معرفة ذلك. كان الصوت يأتينا من خلال الجدار:

حريتي
لقد رعيتك
مثلما أرعى درة نفيسة
حريتي
أنت من أعنتني
على رفع المرساة

سكت الصوت. لم نكن نسمع سوى الليل، عندما كنا مستلقيَيْنِ. كان جدار حجرتنا رقيقاً. كان الصوت غريباً ورخيماً وقوياً في آن واحد،

يردد دائماً الأغنية ذاتها. كنت أحب الأغاني. ولا يخلو رأسي، منذ إجراء العملية، من أغنية.

قالت إيليز:

ـ كنت أسمعها منذ أن كنتَ في مستشفى «أوتيل ـ ديو».

ثم أضافت بعد لحظة:

ـ إنني متأكدة من أنه رجل، فأنا أحسه.

لم أقل شيئاً هذه المرة. كنت أفكر ببساطة في أنها أغنية جميلة. وكنت أفكر كذلك في الدفء الإنساني. انقلبت إيليز على بطنها ومدت ذراعها نحو الطاولة الصغيرة بجانب السرير وتناولت سيجارة «جيتان» وأشعلتها ثم استدارت على ظهرها. عبقت الغرفة برائحة حادة.

قال لنا الطبيب «غروندين» أن ننتظر شهراً بعدُ. ولكننا خدعنا.

سألتني إيليز:

ـ كيف حالك؟

ـ لا بأس، شكراً.

ـ هل أنت تعب؟

ـ ليس تماماً. كأنني صرت دون جسد.

كنتُ ممدداً ومُدّثراً باللحاف، حتى ذقني. كان ذهني صافياً، أمّا الباقي من جسدي فما كنت أشعر به بعد. كمنزل في الظلام مضاءة سقيفته.

قالت إيليز بصوت رقيق:

ـ انتظر، سأصغي، لأعرف...

جثت على ركبتيها وقرفصت ثم وضعت أذنها على قلبي وأغمضت عينيها، مرهفة السمع، كان فمها فاغراً إزاء فمي تماماً. قالت:

ـ إنني أسمعه. فهو يرفرف بجناحيه هادئاً.

ـ مزاحك ثقيل.

كانت إيليز تتحدث دائماً، بلا اكتراث عن الأمور الهامة، وتعلمني، على نحو ما، كيف أعيش. سألتني، بعد العملية، عن إحساسي بنبرة مأساوية تشبه نبرة من شارف على الموت، فرويت لها هذه القصة عن الطائر الجريح. مذ ذاك، صارت تتحدث عن ذلك بشيء من السخرية لمنعي من النظر إلى كل شيء نظرة سوداء.

فتحت عينيها وسألت:

ـ ألستُ ثقيلة كثيراً؟

ـ لا، ولكنك جعلتني أشتهي سيجارة.

فشرعت تقول:

ـ إن الطبيب «غروندان»...

ـ ولكن الجماع أيضاً كان محظوراً.

ـ معذرة، فما كنت قادرة على الانتظار دقيقة واحدة بعدُ. في وسعك أن تنعتني بالمهوّسة إذا شئت.

رسمتُ إشارة صليب على شفتيها.

قرّبتْ سيجارتها من شفتي، فسحبت نفساً عميقاً وأدرت رأسي كي لا أنفخ الدخان في وجهها. دخنت هي أيضاً ثم قالت:

ـ كنت أتوق إليك مثل مجنونة.

ـ وأنا أيضاً.

ـ أمّا أنت، فمع الممرضات...

فسألت دون أن أصدق ذلك فعلاً:

ـ هل أنت غيرى؟

ـ إنني بحاجة إلى رجل. رجل من أجلي وحدي. إنني مهوّسة جنسياً. ثم...

ـ ثم ماذا؟

ـ هل تسمح لي أن أكون صريحة؟

ـ إنها صيغة موجزة.

ـ اللعنة!

استدارت على نفسها دورة ونصف دورة، حتى طرف السرير وأطفأت عقب سيجارتها في منفضة موضوعة على الطاولة الصغيرة. ثم دنت مني. وضعت رأسها على كتفي وطوت إحدى ركبتيها، عرضاً، على ساقي وأكدت:

ـ لم تكن تريد مغادرة مستشفى «أوتيل ـ ديو».

ـ ماذا؟

ـ كنت تُرجيء دائماً.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ الطبيب «غروندان». أوضح لي ان ذلك كان أمراً لا شعورياً.

ـ إيغليز[1]!

---

(1) إيغليز تعني كنيسة. لفظها قريب من لفظ اسم المرأة. م.

توقفتْ عن الكلام. لم تكن تحب هذا اللقب الذي كنت أناديها به عندما كانت تؤدي دور المستأثرة. كانت تملك خصلة من خصال الدجاجة الحاضنة، وجانباً آخر عدوانياً، موازياً للأول، شبه ذكوري. كنت أداعب شعرها الأشقر الحليق، مثل شعر صبي، حلاقة جدّ قصيرة. وأفكر في الثعلب وفي حديث سان ـ أكزوبري عن الشعر الأشقر وحقول القمح، وأحس ثانية، في الوقت نفسه، أن الزمن قد فاتني كلية.

سألتني:

ـ هل غضبت؟

ـ لا، طبعاً.

ـ لقد جرحتك، معذرة.

ـ إنما أنا الحسّاس أكثر مما ينبغي.

ـ هذا أمر طبيعي، فبقلبك، قلب الـ...

لم أكن أعرف أنه أمر طبيعي. كنت أفكر في الطائر الجريح وأخاف أن لا أعود أبداً إلى ما كنت عليه. هدلت إيليز بصوتها الشبيه بصوت الأم الحنون، الصوت الذي كان يبدو وكأنه يهدهد الكلمات:

ـ سوف ترى، سوف ترى يا صديقي ورفيقي القديم، ستنعم بالدفء في المنزل، وسترتاح وتستعيد، على مهل، قواك، وستعود كما كنت، وسوف تتمهل، فلسنا مستعجلين، سنحميك وسنسهر على راحتك مادمت...

كانت تقول «نحن» كما لو أنها جنّدت فئة من المتطوعين المتنبهين والمسارعين، نوع من «جيش الخلاص» كرس نفسه لراحتي الشخصية. ما عدت أسمع الكلمات. ادع نفسي، ورأسي مطمور في الوسادة وعيناي

مغمضتان، تستسلم لهدهدة همسها. كنت أعوم بهدوء في أعماقي على ضرب من بساط سحري يغوص، بانحناءات بطيئة، في جو من الطمأنينة الدافئة. ثم برد الهواء فجأة وشعرت بتوعك في حالتي.

نهضتُ.

سألت إيليز قلقة:

ـ ألست على ما يرام؟

ـ النافذة...

ـ ولكنها... مغلقة! هل ساءت حالتك؟

ـ إن هذا ليس مهماً.

ـ إنك شاحب تماماً. هل تشعر بالبرد؟

ـ إنني أتجمد... من الداخل.

ـ كنت تحلم. أنت تحلم دائماً. تمضي وقتك حالماً.

كانت تنظر إلي. كنا كلانا جالسين، وجهاً لوجه، في وسط السرير عاريين تماماً، وكان ثمة في أعماق عينيها حنان بالغ خفّف من قلقي، بعدئذ استبدّ بي إعياء شديد. قالت إيليز:

ـ عليك أن تستريح الآن. استلق.

أذعنت.

تمددت قريباً مني، أعادت تغطيتنا باللحاف. وتناولت، بيدها، إحليلي قائلة:

ـ إنك صغير جداً.

ـ لم أبد أية مقاومة. كانت تقول ذلك عند كل مضاجعة. وأردفت كالمعتاد:

ـ ماذا ستفعل عندما تصير كبيراً؟

لم أرد بشيء. كنت أفكر في الرفض. لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير في ذلك، ولكن دون الإحساس بالقلق، لأنه قد صار، من فرط ما تحدثنا عنه، لاسيما مع الدكتور «غروندان»، مثل حيوان آنيس، أو بيساطة ربما لأنني كنت أكثر نهكاً من أن أشعر بالقلق. بدلاً من الرفض كنت أقول، أحياناً، الارتداد. كنت أفضل ذلك.

أغمضت عيني. كنا نقطن في الطابق الخامس في منزل للسائحين يقع على شارع «تيراس ـ دوفيران». كان المنزل جميلاً يشرف على الـ «تيراس» وأرصفة الميناء والنهر، وعندما كان الجو صحواً، كانت جبال «شارل ڤوا» البعيدة والمهيبة تتراءى جلية من وراء جزيرة «أورليان» وجسرها الهش. كان الخريف قد أقبل والثلج قد سقط. إن مراكب العبور الصيفية التي كانت تلتقي ما بين «كيبيك» و«ليڤي» وتجر ليلاً، وشاح ضوئها ببطء فوق الماء، سوف تترك مكانها عما قريب لسفن الشتاء الحزينة، المتصلبة في قواقعها البيضاء والمتجمدة، وستجمع كاسحات الجليد جميع الطوافات التي كانت تعلّم القناة، وستعيدها إلى الشاطئ، وكنت أسائل نفسي ماذا سيفعل الربابنة لمعرفة طريقهم في النهر.

بدأت أغفو. شعرت، دون أن أفتح عيني أن إيليز منحنية عليّ. سألتني:

ـ هل أنت نائم؟

ـ إنني أنساق مع التيار.

ـ أطلق لنفسك العنان. ستغفو.

قلت بعناء::

ـ كان في ودي... أن تحكي لي عن الطيور...

ـ أنت تحلم، يا صديقي.

ـ قولي لي أسماء الطيور التي تعرفينها.

فعدّت:

ـ أبو زريق، حسّون، سماناة، سنونو، زرزور، دُخّل، شحرور، قبّرة، نورس، ديك بري، حجل...

استطعت أن أقول أيضاً:

ـ إنك تذكّرين وتؤنثين...

ـ لأن الطيور منها مذكر ومنها مؤنث.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف. أطلق لنفسك العنان. أنت نائم. بدأت تحلم.

ـ من تحت الجناح، يفقد دمه...

ـ أنت نائم، يا صديقي، نائم.

توقفت الطيور عن المشاجرة. كان الطائر الجريح يملّس ريشه بمنقاره. لم يكن يُسمع بعد، على مسافة، سوى هديل مكتوم.

* * *

إنها قصة قلب.

* * *

عينان...

عينان... معلقتان... من فوقي.

كان الضباب قد أخذ يتبدّد، وتعلقت بكل قواي، بهاتين العينين العميقتين والمرهقتين والحزينتين.

كان الطبيب «غروندان» منحنياً على سريري. كنت حياً. أنظر إلى هذا الرأس العجيب ذي القلنسوة الخضراء في قمته والأنف والفم الملثمين: فبدا لي فجأة، هزلياً على نحو مضحك. شرعت أضحك. انحجز الضحك في حلقي، وجعلني أهتز وأتألم. شعرت بدمعة فوق وجنتي. حينئذ قلت وأنا أتنهد:

ـ عيناك وديعتان، يا دكتور...

فأجاب بجذل:

ـ شكراً جزيلاً!

عزّاني دفء صوته. جلت، دون أن أدير رأسي، أنظر إلى ما حولي: جدران بيضاء، وأجهزة غريبة، وممرضة. عدت إلى الطبيب «غروندان» الذي قال:

ـ قاعة الانعاش[1].

يقظة... يقظة... أغنية مضحكة قليلاً، وعسكرية كثيراً كانت تذاع ظهراً في المذياع، فيما مضى:

إنها يقظة الطبيعة

سيُبعث كل شيء تحت الشمس الساطعة

أغمضت عيني. كانت العبارتان تلحان عليّ فأستسلم لهما. حرّكت أعضائي حركة خفيفة. سمعت صوت الجرّاح:

---

(1) تعني يقظة أيضاً. م.

ـ هل أعضاؤك كلها كاملة؟

أسبلت جفني بالإيجاب وقطبت جبيني. كنت مثل طفل: سعيداً لكوني حياً ولكن جدّ واهن وجدّ مسرور من التفكير في أن الناس سيهتمون بي. وضعت يدي بحذر على صدري فاكتشفتُ أصابعي ضماداً سميكاً، مشدوداً. شعرت، تحته، بألم خفيف وغامض كان في وسعه أن يكون ألم شخص آخر. كان القلب يخفق بهدوء، فاستسلمت، شيئاً فشيئاً، لنوم كان يبدو أنه يتصاعد من أعماقي مثل مدّ كبير.

* * *

قصة حب بيني وبين مدينة «ڤيو ـ كيبيك»[1]

* * *

أجاب الطبيب «غروندان»

ـ لقد قرأت كتبك.

كان الجرّاح جالساً على طرف سريري.

كان قد دخل حجرتي، مع طبيب أكبر منه سناً، وتابع، بانتباه، الفحص الكامل، من القدمين حتى الرأس، الذي أجراه لي الطبيب. ثم أوصل زميله إلى الباب، وتبادل معه بعض الكلمات بصوت جدّ خفيض. بعدئذ جاء وجلس. انتشلته من تأملاته إذ سألته عن حالتي، فقال، جواباً عن ذلك، تلك الجملة المتعلقة بكتبي.

ألححتُ، فسأل:

ـ كيف حالك؟

(1) معناها الحرفي ـ كيبيك القديمة. م.

ـ يبدو لي أنني أعود إلى الحياة، أليس كذلك؟

ـ لقد قطعت بوناً جيداً من الطريق.

ـ والمسافة الباقية، هل هي طويلة؟

فطمأنني:

ـ لقد مضى الأسوأ. إنني أجدك في أحسن حال.

تابعت إلحاحي:

ـ تبدو مهموماً...

فسألني فجأة:

ـ لماذا تكتب؟

باغتني السؤال. كان يجب عليّ، قبل العملية الإجابة عن شتى الأسئلة غير المتوقعة عن الحياة والموت وعن زوجتي وكتبي، وكانت الأسئلة تدهشني لأن ازدراع القلب بالنسبة إلى الطبيب «غروندان» لم يكن سوى أمر هين من أمور الأنسجة.

أجبت أخيراً:

ـ كي لا أشعر بنفسي مذنباً.

ضحك ضحكاً خفيفاً، قام ثم أشعل سيجارة ومشى حتى النافذة. راقب المشهد الطبيعي، مشبوك الذراعين والسيجارة في زاوية شفتيه، وسأل دون أن يلتفت:

ـ لماذا يبدأ الإنسان الكتابة؟

ـ لأنه، يصعب عليه العيش، وربما...

شقّ الجواب بنفسه طريقاً له إلى الخارج وتغير شيء في جو الغرفة. كان الصمت مفعماً بالطيور ورفيف الأجنحة.

عندما لا يحدث شيء.

يُسمع رفيف الأجنحة.

وتغيب تتمة القصيدة عن بالي. كان لدي إحساس بأنني تخلصت من خطر غامض كما لو أن ذاكرتي تلفظ كل ما كان يهددني. تذكرت، مع مرور الوقت أبياتاً استهلت بها القصدة:

إنني قفص عصفور

قفص من عظام

مع عصفور

إنها لأمور عجيبة، الذكريات: أزهار على طول جرف. بحثت وهلة، عن بقية القصيدة. ثم سألني الجراح:

- بأية طريقة تبدأ رواياتك... أقصد، ماذا تحوي البداية؟

- غالباً، تبدأ بصورة. ولكن لابد من تركها تتعفن ببطء.

- مثل ماذا؟

- كتلك التي تلاحقني منذ... العملية.

فالتفت إليّ مقترحاً:

- احكها لي.

- لن تعجبك كثيراً.

- وعلى الرغم من ذلك احكها لي.

حينئذ صوّرت له ما كنت أراه، في مكان ما على ضفة النهر، في أعماق حديقة مهجورة، ضرباً من منازل للأطفال، وفي داخله، فتاة صغيرة ذات ضفائر شقراء، موثقة إلى كرسي، وصبيٌّ في ثياب «الكوبوي».

التفت الجراح، يداه في جيبيه، نحو النافذة. قلت متردداً:

ـ قرر أن يغتصبها...

ـ ......

ـ.... للإحساس بالأمان.

لم يقل الطبيب «غروندان» شيئاً، فأضفت وكأن ذلك كان ظرفاً مخففاً:

ـ إنه لأمر غريب، فأنا أكاد لا أرى المشهد المجاور.

ظل صامتاً فقلت أيضاً:

ـ يقال إن ثمة غولاً في كل كاتب.

فتح النافذة، رمى سيجارته خارجاً، وجاء يجلس على طرف السرير وحدّق فيّ قائلاً:

ـ إنني لا أؤمن بالغيلان.

ـ بماذا تؤمن؟

ـ بآثار الطفولة أو ما شابه ذلك.

ـ لم أفهم جيداً.

قال كأنما يحدث نفسه:

ـ إنه شديد البساطة.

مكث بعض الوقت مستغرقاً في تأملاته. ثم قال أخيراً بنبرة خفيفة:

ـ متى انتهت طفولتك، حسب رأيك؟

ـ تقول إيليز إنها، في الواقع، لم تنته.

رسم، مبعداً ذراعيه قليلاً، إشارة قاطعة. ثم نهض وشرع، متفرساً في الأرض، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. فقلت بعد عدّة دقائق:

ـ هل ثمة ما يقلقك؟

ـ ماذا؟

ـ هل تفرط في التفكير؟

ـ لا، طبعاً إنما أتأمل.

ـ هل تفكر في الرفض؟

كان لايزال يروح ويجيء. كنت أحاول أن أفهم: الطفولة... الرفض... الطفولة... الرفض... الطفولة... ولو لم تكن اللغة فينا؟ ولو أن الإنسان هو من كان يعيش في اللغة؟ وجازفت أخيراً:

ـ هل تؤمن بأن في وسع الطفولة أن تكون شكلاً من أشكال الرفض؟

ـ إنك تذهب بعيداً. سأقول لك شيئاً آخر.

اقترب من السرير، وانحنى واضعاً قبضتيه، على الوسادة في جانبي رأسي. وعبس ثم قال بصوت بالغ الخشونة:

ـ اسمع أيها الرجل بقلب فتاة، إن الطبيب هو أنا! والتشخصيات هي من شأني، ولا يُطلب منك سوى الاهتمام بأمر شفائك في أسرع وقت. أمفهوم؟

سكت، ولكنه استمر يصعقني بنظره. وضع قبضته تحت ذقني ثم نهض وانفجر في ضحكة صاخبة ملأت الغرفة. شرعت أضحك معه.

انسحب الطبيب «غروندان» بعد قليل. كان لديه مرضى آخرون.

كنت تعباً بعض الشيء وبدأت أسائل نفسي إن كانت ثمة علاقة بين الرقّة والموت.

* * *

إنها قصة حب بيني وبين «ڤيو - كيبيك».

إنني جالس على درجات مكتبة «غارنو»، ليس أمام المدخل الرئيسي، بل أمام قسم كتب الأطفال.

* * *

كنت جالساً على متكأ النافذة.

كانت نافذة كبيرة نصف دائرية، جد خفيضة ذات رف واسع يمكن الجلوس عليه ومدّ الساقين. كان مطر من أمطار الخريف ينهمر مدراراً، تصفعه ريح الشمال حالاً على النافذة. ظلت مصابيح شارع «تيراس» مضاءة طوال النهار، كما لو أن الشمس لم تشرق كاملة لم تكن ترى ضفة «ليڤي». وكان يُسمع، من وقت لآخر، أنين صفارة إحدى البواخر الخفية.

كنت قد دثرت كتفي، فوق مبذلة النوم القديمة، بلحاف من الصوف.

عادت «إيليز» في الصباح ذاته، إلى عملها القديم سكرتيرةً في إحدى العيادات النفسية. قررتْ كل شيء بنفسها. وإذ فوجئتُ، لم أحاور. إضافة إلى أنها أظهرت جانبها الذكوري في هذا الشأن.

دق جرس المدخل. كانت الساعة تشير إلى الخامسة وعشرين دقيقة.

ذهبت أفتح الباب: كانت «إيليز». مبللة. تلهث على نحو مخيف، لكن ابتسامة ظفر تتألق على وجهها. كانت تمسك محفظة الجلد بيد

وكيس التسوق باليد الأخرى. تقدمتْ ومدت وجنتها فقبلتها قائلاً:

ـ ولكن... هذا معطفي المشمَّع!

أرحتها من أكياسها وبدأت أفتح أزرار المشمَّع. كان المشمّع عسكرياً وقديماً ذا ياقة وطيات جد عريضة وعدد هائل من المشابك والأزرار.

قالت:

ـ علّقه من فضلك فوق المغطس.

ـ دون شك.

أخذتْ أكياس التسوق وغابت في المطبخ. ما أن انتهيتُ من تعليق المشمّع على رأس الدوش حتى دخلتِ الحمام.

ـ وضعتُ الدجاجة في الفرن. هل أنت جائع؟

وتابعت دون أن تعطيني وقتاً للإجابة:

ـ إنني أتضور جوعاً!... هلا أعطيتني المنشفة الكبيرة الزرقاء؟

مددت لها المنشفة. نشفت وجهها وبدأت تجفف شعرها. سألتها إن كانت تريد أن أساعدها فأجابت:

ـ لا، شكراً.

ـ تبدين سعيدة.

ـ أجل.

ـ هل أنت مسرورة بالعمل؟

أسمعتني نخيراً مخنوقاً. اختفى رأسها تحت المنشفة. وقالت فجأة:

ـ نشفني. لقد غيرت رأيي.

كانت جالسة على حافة المغطس. وقفت قبالتها، بين ساقيها وبدأت أجفف شعرها بالمنشفة. كانت تئن أنيناً خافتاً. سألتها إذا كنت أسبب لها ألماً.

ـ لا بل أنت تريحني.

أبعدتُ هدب مبذلتي المنزلية، ودست يديها خلف ركبتي مداعبة ساقي وصعدت بيديها، فقلت:

ـ لا ريب في أنك مرهقة.

ـ أنا في حال جيدة، شكراً.

ـ عملت طوال النهار...

فرددت ثانية:

ـ إنني أتضور جوعاً.

ـ أنت مبللة بأكملك.

ـ كان المطر ينهمر غزيراً.

ـ لابد من أن تغيري ثيابك، سيصيبك الزكام.

ـ إنك لطيف.

ـ صوتك مزكوم تماماً.

أخذت المنشفة مني ووضعتها على طرف المغطس. نهضت ثم قالت وهي تستدير:

ـ هلّا ساعدتني؟

ـ ماذا؟

ـ السحّاب، من فضلك...

أنزلت سحابها حتى نقرة الكليتين. فترجتني:

ـ ساعدني بعدُ.

ساعدتها على تحرير كتفيها من ثوبها الصوفي الذي تركته ينسدل ويسقط على الأرضية. خطتْ خطوة جانبية. انحنيتُ وتناولت الثوب. طالبتني مشيرة بأناملها إلى مشبك «سوتيانها». فقلت ببلاهة:

ـ سأذهب لإلقاء نظرة على الدجاجة.

ألحت:

ـ أرجوك.

فعلت ما طلبته مني. انحنت منسلة من «سوتيانها» وبالحركة ذاتها دعت بقية ثيابها تنسدل من وركيها. حررت قدميها واستدارت نحوي. كانت نظرتها عكرة، مثل مياه مستنقع راكدة، اعتقدت لحظة، إني رأيت في أعماق عينيها أصابع طويلة شعراء تتحرك مثل الحشرات. كنت أنظر إليها منبهراً، كان يبدو لي أنني أنزلق على طول جدران رطبة لبئر يجذبني عمقها جذباً لا يقاوم.

شبكتْ ذراعيها فجأة وأنشدت بنبرة طنّانة:

ـ «نوتر ـ مير ـ لا ـ سانت ـ ايغليز!»[1]

انفجرتُ ضاحكاً، ارتمت على عنقي، فضممتها، بمودة، إلى حضني. تبدد الضيق. كنت أحس نفسي على مايرام، فرفعتها وجعلتها تدور. كانت تضحك مثل مجنونة. رأسها فوق كتفي. قالت:

ـ هل كنت تخاف؟

---

(1) «أمنا ـ الكنيسة ـ المقدسة». م.

ـ لا أدري.

ـ ألم ترَ في حياتك، امرأة عارية؟ إنك غريب الأطوار.

وبدأت تضحك ثانية معلنة:

ـ ستستحم «إيغليز».

ـ سأهتم بأمر الغداء.

ـ أنت لطيف حقاً.

جثت على ركبتيها في المغطس وفتحت صنبور الماء. ناولتها لوحاً من الصابون وليفة وتوجهت صوب المطبخ. كان في رأسي المناغاة القديمة التي كان يغنيها الأسود «بول روبسون»:

Sometimes I feel like a Motherless child[1].

ملأت «إيليز» في البداية المطحنة الخشبية بحبوب الـ «جاڤا» والـ «موكا». وأدارت المقبض حتى تحولت الحبوب الصغيرة إلى مسحوق، أضافت إليه ذروراً من الملح وجعلته ينساب على المصفاة الموضوعة فوق الفناجين، وسكبت الماء المغلي ببطء على الأغطية المفلترة: عبق المكان كله برائحة القهوة الزكية المطحونة تواً.

وضعت في فنجاني أربع قطع من السكر وكمية صغيرة من القشدة. كانت تشرب قهوتها سوداء للغاية. أشعلتْ سيجارة وسألتْ:

ـ ألست جائعاً؟

ـ ليس كثيراً.

---

(1) أشعر بنفسي أحياناً طفلاً يتيم الأم. م.

ـ ماذا فعلت اليوم؟

ـ قرأت «باشيلار» و«هنري بوسكو».

ـ ماذا؟ الاثنين معاً؟

ـ طبعاً.

ـ إذن، فإن روايتك لم تبدأ...

حاولت أن أشرح لها:

ـ إنها بدأت الآن. أشعر بها تتحرك في داخلي.

قالت:

ـ عجباً، ألا يشبه هذا امرأةً قليلاً؟

كانت حائرة. تمسك سيجارتها بين إصبعيها وفنجان قهوتها في باطن كفيها المعقوفتين وتنظر إليّ بحنان قلق بعض الشيء، ضرب من تواطؤ مزعج، يخل نتوء وجنتيها بشكل وجهها البيضاوي. كانت تهتم بالأشياء، وأنا بالأحلام. كان يحدث أن تعيدني إلى الأرض بعنف شديد. كان الجسر الصغير يتحطم أحياناً بيني وبينها: رجل مهجور على الرصيف، وحقيبة فارغة عند قدميه، وقفص طائر في يده.

قالت:

ـ لم أضف الكونياك، بسبب قلبك.

ـ ماذا؟

ـ ماذا بك؟

ـ لا شيء البتة.

ـ يحدث لك هذا غالباً. تَشْرد فجأة.

ـ لعل ذلك بسبب القصة التي بدأت.

ـ احك لي. اشرح قليلاً. إنك تكاد تعزف عن الكلام.

ـ إنه لأمر معقد، ولكن ثمة عبارة قالها «أندريه بريتون» تساعدني على الفهم: «السفر صوب القطب الداخلي للذات».

كانت تبدو متأملة. كنت أرغب في أن أكون في مكانها لأرى كيف تنظر إلى الأمور. على الطاولة كانت شمعة مغروزة في زجاجة كونياك بالبرتقال قديمة تحترق، يغطي بطنها المنتفخ راسب شمع العسل الذائب المتعدد الألوان. سحبت «إيليز» نفساً عميقاً من سيجارتها، ثم قالت بصوت تنغّم على غفلة:

ـ هل أنت تعِس؟

شعرت بنفسي محوطاً بحضورها، كالمتدَثِّر بلحاف صوفي دافئ، وأجبتها بأنني في حال جيدة وقلت:

ـ شكراً.

فسألت:

ـ هل تريد أن أتوقف عن العمل.

ـ طبعاً، لا.

ـ أأنت متأكد؟

ـ أنت بحاجة إلى العمل. ستحقدين عليّ، على مرّ الأيام.

ـ أبداً، سأتوقف إذا شئت.

فقلت بحزم:

ـ كلا.

تابعت التفكير. أطفأت عقب سيجارتها في المنفضة وقالت بصوت مهزوز:

- إنني أفهم جيداً. فهذا متوقع، سأدعك تسافر وحيداً. اتفقنا. أمّا أنا فسأنتظرك عند المخرج. هل ستأتي؟

- أهو موعد؟

- بالضبط.

- إذن، سآتي.

- أتُعاهدني على ذلك؟

- أُعاهد، ولكن هل أنت متأكدة من أنك ستنتظرينني؟

- أُعاهدك، على ذلك أيضاً.

كنا كلانا نسبح في بحر الرومانسية، كان ذلك مضحكاً ورائعاً كما في بداية علاقتنا. كان المساء يشملنا، وكان الطائر الجريح مستسلماً للنوم والشمعة القديمة تسكب عسلاً.

* * *

إنني جالس، مرفقاي على ركبتي ورأسي بين يدي، إزاء قسم أدب الأطفال. يصفق باب المكتبة صفقاً خفيفاً، أفتح عيني بعد لحظة: قدمان حافيتان تقفان قريباً مني، سمراوان وساكنتان ومضمومتان، الواحدة إلى الأخرى. أرفع رأسي، ليس حباً في الإطلاع إنما سهواً.

* * *

ذهبت «إيليز» قبل قليل، إلى العيادة.

أعدت «إيليز» وجبة إفطار جدّ غنية: عصير البرتقال الغض، والبيض

مع قديد الخنزير والخبز المحمص، والمربى والقهوة. ارتدت مشمعي القديم وقبّلتني ثم انصرفت، وهي لا تكاد تخفي سرورها، إلى العمل.

نزلت بحذر عن الطوابق الخمسة، متمسكاً بالدرابزين بإحدى يدي، ومستفيداً من الردهة لاستعادة نَفَسي. عند أسفل الدرج، سدّت الحاجبة الطريق عليّ. لقد ضاعفت الحاجبة، بعد خروجي من مستشفى «أوتيل - ديو» حراستها، وبصفتها حارسة شرسة، ألقت بكل معنى الكلمة، بالفضوليين والصحفيين إلى الشارع، ملفقة لهم أكاذيب لا تصدق.

سألتْ بنبرة قلقة وحذرة إلى أبعد حد:

- هل أنت بحاجة إلى شيء؟

- لا، شكراً، سيدتي.

كانت ساكنة ورأسها متوج بلفافات الشعر، قدماها في حذاء قديم أزرق باهت، ذراعاها مشبوكتان فوق ثوبها الوردي ذي الأزهار الذابلة، الذي يكشف بسخاء شمالاً، عن صدر يتوارى جنوباً. سألت قلقة؟

- لعلك تنوي الخروج؟

أجبتها بنوع من التذلُّل:

- نزهة قصيرة.

- نزهة؟

فأجبت بحزم أكثر:

- نعم.

جُنّتْ.

ـ وحدك؟

ـ وحدي.

ـ والسيدة موافقة؟

رددت بالإيجاب لأتخلص منها. تنحّت، على مضض، ولكنها سرعان ما قامت بهجوم مضاد قائلة:

ـ انتظر، سأطلب من زوجي أن يرافقك مسافةً من الطريق... يا جورج!

فقلت رافعاً صوتي:

ـ لا حاجة إلى ذلك، فإنني في أحسن حال، اطمئني. شكراً جزيلاً على... اهتمامك. لقد حكت لي «إيليز» عن كل ما عملتِه من أجلي و...

قاطعتني بجفاء شديد:

ـ كان ذلك عن طيب قلب.

فتحت وهي (تبرطم) البابين الثقيلين المطلين على الشارع. مررت من أمامها وقلت لأسكّن روعها قليلاً:

ـ إنه الصيف الهندي[1].

نزلت إثري عدّة درجات بصمت، وكنت لا أزال أحس، عندما بلغت قنصلية الولايات المتحدة، بنظرتها الحادة والمستهجنة على ظهري.

عبرت، مواربة، الحديقة الصغيرة المسماة بفخامة «بستان الحكام» والشديدة العجرفة بممراتها المتناظرة وأشجارها ذات الأرقام المكتوبة على قطع بلاستيك أحمر، وصرحها البشع. قمت بدورة لألمس بيدي شجرة أعرفها، قديمة ضامرة وملتوية تماماً.

---

(1) عندما يكون الجو حاراً في الخريف. م.

بدأت أتردد عند تقاطع شارعي «مون ـ كارميل» و«هالديمان». كان الضباب ينتشر خفيفاً، والهواء عليلاً ودافئاً، وبقايا ذكريات تتحرك بغموض، في داخلي. سرت بضع خطوات في شارع «مون ـ كارميل» وتوقفت أمام الرقم عشرين. فخلف هذا الباب المترس وهذه النوافذ المحجوبة بعوارض خشبية، كانت ترقد، في أمان، أجمل سنوات حياتي الطلابية، الموزعة بين مارك، الصديق الوفي، وماري، الصغيرة ماري كما كنا نقول، نحن الذين خلقنا ثانية، في الطابق الأخير حيث كنا الأسياد الكاملين، جو حياة عائلية، كل شيء فيها مشترك، وحيث كنا سعداء على نحو لا يوصف.

وفي غضون بضع لحظات، بدت لي «كيبيك القديمة» كلها مثل كتاب صور قديمة وأطلقت العنان لنفسي وسرت ببطء في شارع «هالديمان» وسط المنازل القديمة والذكريات التي كانت تستيقظ في ذاكرتي. حييت، وأنا ماشٍ، فندق «غوفيرنور» وعملي فيه نادلاً، العمل الذي لم يدم أكثر من نهار صيفي واحد. في أسفل الشارع كان الباب الذي يظل مشرعاً غالباً على «ميشيل» الفائقة الجمال وكلبها الغريب والصغير بعينيه الضائعتين تحت وبره الشعث، الرقم تسعة «لو بيتي شاتو» حيث كان يسكن زميلي الجامعي تحت تخشيبة السقف ويقاسمني وجباته المؤلفة من البطاطا والشحم وفطائر العسل التي كنا نتلذذ بها في الخارج فوق أحد الأسطح المجاورة لـ «شاتو فرنتناك»(2)، وعند أسفل المنحدر، كان مقهى «جاردن» المسمى فيما مضى «جورجز غريل» مع العجوز الإيرلندية التي كانت تقدم لنا غالباً نقانق الخنزير أو شرائح اللحم التي يعقبها الرز بالحليب حتماً.

---

(1) فندق شهير في مدينة كيبيك. م.

بعد أن عبرت شارع «سان ـ لوي»، بلغت «كافيه دولابيه» حيث التقيت مراراً، بماري ـ كلير بليه[2] التي كانت تمر مصادفة من هنا، بضفيرتها الطويلة المسدلة على جنبها، وتلقي التحية، دائماً بصوت خفيض وابتسامة، في الوقت نفسه، خجولة وودّية، ثم رأيت، في مكان أبعد قليلاً، متجر الكتب القديم «بوكينيست» حيث كنت أذهب بعد ظهر الأيام الماطرة أفتش عن الكتب وأستعيرها.

عبرت شارع «سانت ـ آن» الذي كان يعبق دائماً برائحة روث نفاذة، وانعطفت يميناً عند زاوية شارع «بوآد». سرت عدّة خطوات، كان هناك محل «جيغير» لبيع الدخان ومكتبة «غارنو»... أبطأت السير... التفت نحو شارع «فابريك».

ما كنت أحس به، لم يكن ناجماً عن التعب الذي يتسلل إلى الأعضاء ويشد، بكامل وزنه نحو الأرض. ولم يكن ناجماً كذلك عن الذكريات الدافئة قليلاً مثل الحياة، التي كانت ألوانها، شأن ألوان المنازل القديمة التي خففها الزمن، تتلاءم ثانية وتتناسق. كان في وسعي أن أنزل بعدئذ، في شارع «ريمبار» نحو الشقة القديمة المليئة بالفئران ولكن ذات الإطلالة الرائعة على «باسان لويز» وأعبر قوس شارع «أونيفيرسيتي» الصغير المغمور بنور ضعيف ومريح، أو أن أصعد حتى شارع «سان ـ دوني» حيث كان الضوء الذي تعكسه خضرة «سيتاديل» أكثر جلاء من أي مكان آخر.

كان في وسعي الذهاب إلى أي مكان، ولكني مكثت هناك، إزاء شارع «فابريك» حيث قادتني ذكرياتي. كانت بعض الصور لاتزال تدور حولي، وفي مكان أبعد، أبعد كثيراً، في أعماق الذاكرة الجماعية واللاواعية كانت صور أخرى تتصاعد، صور قديمة وصفراء مثل نقوش

---

(2) روائية كيبيكية معاصرة. م.

عتيقة تجعل أن ينبثق، من الماضي، هندي قوي وطريق رملي، ومدرسة مبشرين وسوق شعبي كبير.

تركت نفسي أنساق ببطء مع منحدر الشارع، وأدركت، بالتدريج أن الهواء لايزال عليلاً، وأنه ثمة ضرب من حنان في النور وأن حركة معكوسة بدأت تعرض أمام عيني سلسلة متوالية ومبرقشة من الثياب المزركشة، والتخاريم الرقيقة، والخزفيات الصينية والجواهر الثمينة ومنحوتات الأسكيمو، والعطور الطيبة والرسوم المائية، والأنسجة الصوفية، وشتى التحف، في حين كانت أسماء المتاجر ترن بثبات في رأسي: مانيكان، إيرين أوجير، بيرك، سيمون، كيرهولو، أرتيزان، وشيري.

جلست، أمام آخر متجر، على سلّم صغير وأسندت رأسي إلى يدي. كنت أعاني من تشوش غامض، وأشعر بالراحة، وقد أُفرغت من صور هذا الشارع، وكأن كل واحدة منها، ذكرى طفت على السطح، وخرجت من داخلي حقاً. تجلت الحقيقة فيّ ببطء شديد، هشةً ومرتعشة في البداية، ثم متألقة على حين غرة: قادتني ذكرياتي وسط الشوارع، مثل الدم في الشرايين، حتى شارع «فابريك» هذا، الذي كان قلب «كيبيك ـ القديمة» وكان هذا القلب أيضاً قلباً أنثوياً.

بعدئذ نهضت، وبينما كنت أرجع أدراجي لأشرب شيئاً ساخناً، كان المتجر الأخير، الوردي اللون كاملاً، في أسفل الشارع، مع أثوابه، أثواب الفتيات الصغيرات، وتخاريمه ومجوهراته، لايزال يردد لي اسمه مثل وشوشة «شيري[1]، شيري، شيري...».

* * *

---

(1) عزيزتي. م.

الحظ، عندما أرفع رأسي شارداً، سروالاً من الجينز وقد صار لونه الأزرق رمادياً وتغضن عند الركبتين، وسترة صوف زرقاء باهتة وجد طويلة، مرفوعة الكمين حتى فوق المرفقين، وكتفين هشتين بعض الشيء ووجهاً فتياً وجدياً، محوطاً بشعر أسود معقوص عند الرقبة. فجأة، يدفعني ذلك إلى السؤال. أصبي أم فتاة؟ ـ ولا أستطيع أن أحدد. عادة يتردد المرء في جزء من الثانية ثم سرعان ما يشخّص، أمّا هنا... فأحس بنوع من الحيرة، إنه مثل باب مفتوح على المجهول: اللغز، الرقّة... الإحساس بشيء محظور.

* * *

قمت، بغية التمتع الهادئ بالأشياء، بجولة في الشقة دون أن ألمس شيئاً، ألقيت، من خلال النافذة، نظرة على النهر: كان الليل جلياً ومائلاً إلى الزرقة، والمراكب تشق أخاديد واسعة وسط الجليد. ثم عدت إلى الطاولة الصغيرة المستديرة، التي ينسدل عليها غطاء من المخمل الأخضر لأراجع ما كتبته مرّة أخرى.

كان «جيمي» في بذلة الـ «كوبوي» يرفع الكمامة عن فم سجينته ويقف إزاءها قائلاً:

ـ اسمعي، إنك سجينة، لأنني أريد اغتصابك. إن هذا القول بعث فيّ السكينة. لن أقوله بعد الآن أبداً. سأبدو وكأنني أفكر في شيء ما، ولكنني لن أفكر إلا فيه طوال الوقت. مفهوم؟

ـ نعم، ولكن لماذا؟

ـ لبلوغ السكينة.

ـ و... ماذا يعني الاغتصاب؟

يظل «جيمي» دهِشاً بضع ثوان، ثم يستبد به غضب شديد. تكدّ مثل غبي وسيم، تنجح في أسر فتاة نجاحاً باهراً كما في أفلام «ويسترين»، تريد أن تغتصبها: حتى إنها تجهل ماذا يعني ذلك! اللعنة! كان يشتم سجينته ويهزها من كتفيها، ويركل الأثاث، ويرمي ما يقع تحت يده على الأرض. أخيراً يجلس على الأرض وسط الفوضى، مفرغاً، فجأة، من كل غضب.

ها هنا، كانت القصة تفلت مني.

تمنيت أن تظهر هذه القصة، عنيفةً وبدائيةً، وأن يحل في نهايتها فحسب، ضرب من حنان، مثلما يخفي حلول المساء أثار نهار عاصف. وجد جيمي نفسه مرمياً، منذ البداية وسط تيار لمغامرة محفوفة بأعاصير طارئة وقفزات مفاجئة، مغامرة، خرج منها منتصراً، ناقلاً معه ضحيته الموثقة والمكممة، متعثراً على دروب لم يرها القمر جيداً، متدحرجاً إلى الهاوية، متابعاً طريقه خائر القوى لاهثاً حتى بلوغ هذا المنزل الصغير للأطفال في عمق الحديقة.

ما أن ابتدأت القصة، حتى شرعت الكلمات تلين تحت ريشتي، وتضعف: كانت موجة لطف عارمة، لا أدري من أين، قد غمرت جيمي، كانت قصتي تفلت مني، لم أكن أقدر على شيء. كنت في البداية أشطب بلا هوادة، أبدّل الكلمات، وأمزّق الصفحات، وأبدأ ثانية من حيث كنت أعتقد أنني فقدت سيطرتي، ولكن كانت المشاعر ذاتها تعود متنكرة قليلاً، والجُمل ذاتها، مُحرّفة قليلاً، تتكون من جديد. فانتهى بي الأمر بأن فوّضت أمري إلى هذا الغريب المستقر في أعماقي، والذي يرى كل شيء على نحو آخر، موكلاً إلى نفسي مسؤولية واحدة فحسب، وهي أن أكون حاضراً هنا، مستعداً لتدوين الرغبات التي تنتابني. وعندما

لم يكن شيء ينبعث في وعيي، لم أكن أكتب شيئاً وأجهد نفسي على البقاء متيقظاً رهن الإشارات.

تعلمت أن القصة تتكور على نفسها، أحياناً، كما يستلقي قط وينام، وأنه لابد من الانتظار. كانت تنبثق فجأة، صحوات عابرة ودفقات من النور في الفضاء الداخلي، تماماً، مثلما يخرج متنزه وحيد من غابة مظلمة إلى فرجة مضاءة. حينئذ كنت ألمح بعض الصور الشاردة وأجزاء أحد الديكورات: مجموعة منازل متراصة حول كنيسة شبيهة بسفينة، وشاطئاً صخرياً مشطوراً بمكان طويل لصيد «الحنكليس» مغطى بالعشب والطحلب، وحشداً من الراهبات في أثوابهن البيضاء فوق إحدى الصخور العالية، مثل سرب من النوارس. وكان ذلك كافياً لأدع نفسي تنتقل إلى صور أخرى اعتباطية وفائضة. كان جيمي يسرق الحنكليس لإطعام سجينته، أو يصادق راهبة بالغة العِفّة تفهمه، وتحاول أن تشرح له بمزيج عجيب من الحنان والتجرّد، المشاعر التي ينبغي أن تحسها الفتاة، والحركات التي لابد من القيام بها، والكلمات التي يجب اختيارها. كنت أحلم. لم أكن أتبين دائماً المشهد كاملاً، وكنت أنتظر أن تستأنف القصة، بذاتها، سيرتها بطيبة خاطر.

على الجدار المواجه لطاولتي كنت قد علّقت صورة كبيرة لهيمنغوي، عندما كان في الخمسينيات من عمره. كان التباين بين الشعر الأسود غير الشائب إلا قليلاً عند الصدغين واللحية البيضاء بأكملها تقريباً، تبايناً بليغاً. أمّا المدهش فهو العينان: اليسرى صغيرة ومغضنة تحدّق في البعيد، واليمنى أكبر قليلاً مبهمة وحزينة. وتحت الصورة كنت ألصقت هذه الحاشية مكتوبةً بخط يدي:

تنظر إلى البعيد

أمّا في ذاتك

فأبحث عن

طريقة

يا عزيزي هيمنغوي

للسهر على عميد

المقتلعين.

كان ذلك مضحكاً يدفعني إلى الابتسام كلما رفعت رأسي ولاحظت هذه الحاشية الصغيرة المعلقة مائلةً. لم أكن سعيداً ولا تعِساً، مادمت أكتب. بل، لم أكن أجد نفسي كاتباً حقيقياً، مادمت على قيد الحياة.

في الخارج، كان الجليد في النهر ساكناً، لأن المدّ كان يتردد بين الصعود والهبوط. وضعت ريشتي وأطفأت المصباح.

دفعت باب الغرفة بهدوء: كانت إيليز قد أغفت متدثرةً باللحف، وسمعت صوت تنفسها المضطرب يتصاعد.

خلعت ثيابي كلها، وطويتها بعناية فوق الكرسي القريب من خزانة الثياب، ثم رفعت اللحاف، بحذر وتسللت إلى جانب إيليز، دارت على بطنها. سمعت همساً كتمته الوسادة، ظننت أنني التقطت كلمة:

- «بيل»....

ألجمت ضحكاً متواصلاً ومتوتراً. فاسمي ليس «بيل» البتة. كانت تحلم، دون شك. اسمي «نويل»، طبعاً. علا صوت قرقرة طويلة ورنّانة في بطني: القهوة التي انتهيت، تواً، من شربها. رداً عن قرقرتي تمتمت إيليز مرّة أخرى بشيء غامض. لم تكن لدي رغبة شديدة في النوم حالاً، وسّعت قليلاً ما بين ساقي، وتركت دفء السرير يغزوني. يداي

مشبوكتان تحت نقرتي، كنت أحس خفقات شراييني. «خفقتان صغيرتان متقاربتان»، وخفقة أكثر بطأً. بغتة، نور ساطع: شخصيات متنكّرة، أيديها ملطخة بالدم، تنحني على كتلة، تنتفض، دامية، أبعدت الصورة الوحشية للغاية، وأغمضت عينيّ، ثم، مستلقياً في العتمة هنا، إلى جانب المرأة النائمة، سرّني التفكير في أن المدينة، مثلي، ذات قلب أنثوي، وأن أحداً لا يعرف ذلك، وأن قلبي في منجى، إذا صح القول، خلف جدران «ڤيو-كيبيك».

بغتة، لمعت فكرة ماكرة: كان جسمي يتقبل قلب الفتاة اليافعة... بل كان بحاجة إليه حتى قبل إجراء العملية... قصة قديمة كانت تعود إلى طفولتي وكل... حاولت التفكير، ونقبت في ذكرياتي القديمة، إلا أن ذاكرتي كانت مسدودة، كانت الصور تتداخل فيما بينها وما كنت أذكر شيئاً:

جدار قديم والعَظَايا[1] تختفي بين الأحجار.

لا أدري لماذا بدأت أفكر في «هنري ميللر»[2] واستقامته الخارقة وفي هذه العبارة: «إذا سار، المصاب بالعُصاب حتى نهاية عصابه النفسي، حتى حدّه المحزن، يجد طريقاً مذهلاً ينفتح أمامه». ذاك، كان الطريق الذي حاول ميللر أن يسلكه، إذ رحل، وفق أسلوبه، صوب القطب الداخلي. كنت أسائل نفسي، إنْ كان في وسع المرء أن يبقى كذلك مستقيماً إذا ما كتب قصصاً بدلاً من الاكتفاء بسيرة ذاتية محضة. ما عدت أعرف. ثم إنني كنت أحب القصص حباً جماً. لا بد من أن هذا يعود إلى الطفولة

(1) مفردها، عِظاءَة، عِظايَة، عُظَاءة: «دويبّة ملساء أصغر من الجرذون تمشي مشياً سريعاً ثم تقف، وتعرف عند العامة بالسقاية وهي أنواع كثيرة». المنجد.

(2) كاتب أمريكي (نيويورك 1891 - لوس أنجلوس 1980). تعدّ رواياته اتهامات عنيفة للعالم العصري. (لاروس).

أيضاً، فالقصة أشبه بمنزل. إنه لأمر غريب، ترخي العنان لنفسك: وسرعان ما تحيّد صوب الطفولة أو صوب منزل. عاد الجدار أمام عيني مع العظايا، اختفت حرباء وكأنها تلاشت... استيقظت إيليز مذعورة وسألت:

ـ هاه؟

ـ هُس!

ـ ماذا يحدث؟

ـ لا شيء.

ـ هذا أنت؟

لم أجد رداً. إن من يستيقظ من النوم يضحكني دائماً. جلستْ في السرير.

ـ كم الساعة؟

ـ لا أعرف. الثانية ربما.

سحبت منديل «كلينيكس» من تحت الوسادة وتمخطت ثم قالت وهي تضطجع:

ـ لقد أفزعتني.

ـ معذرة. أكنت تحلمين؟

ـ أجل.

ـ في ماذا؟

لم ترد. إنّما رفعت اللحاف حتى ذقنها. لمست وركها يدي. فقالت:

ـ إنك بارد.

ـ معذرة.

ـ هل خرجت ثانية؟

ـ لا، طبعاً، كنت أعمل في البهو.

تثاءبت قائلة:

ـ إنك تعمل كثيراً.

ـ أنت كالدجاجة الحاضنة.

نهضتْ:

ـ ماذا تقول؟

ـ أنت أم مفرطة العناية بأولادها...

ـ لم أسمع هذا الكلام منذ وقت طويل.

ـ وكأن هذا يسرّك.

ـ صحيح. إنني أم مفرطة العناية بأولادها. إنني بحاجة إلى أن أحمي أحداً. كنت هكذا دائماً. ولكن...

ـ ولكن ماذا؟

ـ لاشيء. أعطني سيجارة، إذا سمحت؟

تحركنا في خلال الحديث، في السرير. كنا جالسين وجهاً لوجه، مسندين ذقنينا إلى ركبنا، متدثرين باللحف التي نحتفظ بها ثابتة حول أكتافنا. كان دفء طيب قد بدأ ينتشر. إن كوننا جالسين هنا وسط ظل خفيف، قريبين جداً وبعيدين جداً، أمر عذب ومضحك في الوقت ذاته. ممسكاً باللحاف، مددت يدي نحو المنضدة الصغيرة بجانب السرير، وتناولت سيجارة «جيتان» أشعلتها وقدمتها لها فقالت:

ـ شكراً.

وضعت، إلى جانبها تماماً فوق السرير، منفضة للسجائر وقلت منبهاً:

ـ منفضتك الخزفية، تنقلب بسهولة.

ـ شكراً، هذا لطف منك.

سحبتْ نفساً، فأنار وميض أسفل وجهها. ثم قالت:

ـ أتريد التحدث إلى أمك العجوز المفرطة العناية بأولادها؟

ـ طبعاً، أريد.

ـ هل ثمة ما يقلقك؟

ـ لا شيء، البتة.

كانت الرغبة في التحدّث بجدّية تتخلى دائماً عني، هكذا دون سبب.

قالت إيليز:

ـ قَلّ كلامك أكثر فأكثر.

أخذتُ نفساً من سيجارتها وسألت:

ـ ألا تريدين أن تقولي لي فيم كنت تحلمين؟

ـ لقد نسيت. تعرف، إن الأحلام... كنت تكتب إذن؟

ـ نعم ولا.

ـ كيف؟

ـ لم أكتب، ولكن كانت هناك يقظة، عابرة.

ـ ...

ـ ألن تسألي عمّا أقصد؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ تسيرين في غابة، لا ترين شيئاً، مثل أعمى، فجأة تجدين نفسك في فرجة مضاءة...

ـ وبعد؟

ـ بعدئذ تلمحين صوراً، ولكن...

ـ ...

ـ لا أتبين المشهد كاملاً. أعجز عن رؤية اللوحة كلها.

ـ هل يهمك هذا كثيراً؟

ـ لعل المشهد يخيفني. لا أدري لماذا. أشعر أنه في غاية الأهمية.

ـ أمّا ما أشعر به أنا، فهو أنك تبتعد أكثر فأكثر. أحسّك، الآن، جدّ بعيد.

ـ تريثي قليلاً، لا نخترع سوى أشياء قديمة، ويصعب علينا التعارف. هل تعرفينني، مثلاً؟ إنك تعرفين بَشَرتي، ظاهر جلدي... وروحي، هل تعرفين روحي؟

كانت تنظر إليّ دون أن تجيب، فخمّنت، في شبه العتمة، شيئاً أشبه باللوم في أعماق عينيها. بعد لحظة طويلة، قالت بصوت خفيض:

ـ إنك تتكلم بصوت جد عال. سيسمعنا الجار.

نفضت سيجارتها فوق المنفضة وسألت:

ـ اسمع، متى مارسنا الحب آخر مرّة، هل تذكر؟

ـ منذ أسبوعين؟

ـ في هذا المساء سينقضي شهر!

ـ لقد مضى عليّ شهر وأنا أكتب. يصعب، أحياناً، القيام بالأمرين معاً. إنها حكاية معقدة. تحدّث «هيمنغوي» عنها قليلاً، «ومونترلان» أيضاً...

حاولت أن أشرح لها، ولكني كنت أتشوّش وأنساق على غير هدى.

فقالت:

ـ إنك تعقد حياتك وتفرط في التفكير. قل لي أشياء بسيطة.

ـ أحس بنفسي عجوزاً.

ـ عجوزاً؟

ـ حيناً، في الخمسين، وحيناً آخر في العشرين.

ـ وبعد؟

ـ أحتاج إلى دفء إنساني.

ـ الجميع يحتاج إليه، أمّا أنت فتبحث عنه في الداخل. كما لو أنك تلتهم نفسك.

تذكرت، حينئذ، أشعار «سان ـ دوني ـ غارنو» الأخيرة. كانت تتحدث عن الطير في صدره، وسمعت بجلاء أكثر، وكأن إيليز بذاتها تتلوها عليّ:

إنه لا يستطيع الانصراف
إلا بعد أكل كل شيء
قلبي
منبع الدم
مع ما فيه من حياة

لمحت إيليز تنحني عليّ، وتنقر، بسبابتها، على جانب صدري الأيسر قائلة:

ـ أمّا هذا، فهو فتي الآن، أليس كذلك؟

عاودني ضحك متواصل، في البداية هادئاً كسلسلة أمواج جاءت لتموت في حلقي، ثم تضخم حتى صار قاهراً. ارتميت على ظهري. حينئذ تفجر ضحك عصبي وهيستيري وجامح بأمواج متتالية كانت تسقط ثم تعلو وتهزني من رأسي حتى قدميّ. كنت أضحك وأبكي وأختنق.

فجأة، تلقيت صفعة مدوية على وجهي.

* * *

تستدير القدمان الحافيتان نحوي برشاقة في هذه اللحظة. أنظر إلى الأعلى وأكتشف، بين اليدين المتشابكتين فوق الصدر، كتاباً سميكاً أزرق اللون أبيضه. على صفحة سماء زرقاء، ينطلق طائر أبيض في الطيران، جناحاه مبسوطان وسعهما، أحمر المنقار والقائمتين، يعلو قمة رأسه غطاء أسود. أفكر فيما كانت تقوله العجوز ماري عن الطيور. ولكن الكتاب يغير مكانه ويستقر تحت إبطٍ، ونظرتي المحرومة من نقطة ارتكازها، تنزل ثانية حتى القدمين. تكشف هاتان القدمان عن إشارات عصبية، وتشرعان في السير.

أنهض لأتعقّب القدمين الحافيتين لهذا الشخص الذي لا جنس له حتى هذه اللحظة، ولكن ليس هذا بالضبط هو ما أفكر فيه. إنني أفكر بالأحرى في العجوز ماري. اعتادت العجوز ماري أن تكتب ضرباً من القصائد على الأغطية البيضاء لطاولات مقهى «بواد». إنها نادلة. كتبت،

ذات يوم، قصيدة تبدأ على هذا النحو: «إن هذا لا جنس له...» أفكر إذن في العجوز ماري، لكن الأمرين سيّان.

* * *

طرقت باب مكتب الدكتور «غروندان»: ثلاث طرقات قصيرة، ثلاث طرقات طويلة، ثم ثلاث طرقات قصيرة. إشارات «مورس» بيننا. سمعت ردّه، ففتحت الباب. كان مسترخياً فوق كرسيه الجلدي، اليدان متشابكتان من فوق قبعة خضراء تلف جمجمته، القدمان موضوعتان، مباشرة، على طاولته بين الأوراق القديمة والكتب والصحف. يستقر فنجان من القهوة، متوازناً، على إحدى زوايا الدرج، يتصاعد منه البخار.

- هل أزعجك؟

- إطلاقاً!

وأشار لي، بحركة من ذقنه، إلى كرسي مضيفاً:

- لقد خرجت، تواً، من عملية. لدي ساعة أتمتع فيها بالسكينة، إن كان حسابي دقيقاً: وإن لم تحدث مضاعفات.

فسألت وأنا أجلس في عمق الكرسي:

- «زَرْع»؟

- لا. تبديل بسيط للصمام.

- عمل روتيني.

انتزع التعليق منه ابتسامة خفيفة، ولمع وميض في عينيه، وكأنه يستعيد رؤية العمل المنجز. مدّ ذراعه واحتسى جرعة من القهوة ثم سأل:

- هل ثمة ما يزعجك؟

ـ أشرت بالإيجاب.

ـ أتريد أن أفحصك؟

أشرت بالنفي.

ـ ليس الأمر «فيزيولوجياً».

حركتُ رأسي موافقاً. صامتاً، عارياً، جالساً على قمة أحد الجبال، كان رجال العلم، في العالم قاطبة، يأتون كي يفحصوني بصمت.

ـ هل تريد مقابلة الطبيب النفسي؟

ـ كلا.

ـ معذرة. رغبتُ فقط في أن أسمعك تتكلم.

ابتسمَ وأفرغ فنجانه جرعة واحدة ثم أضاف:

ـ فهو، مع ذلك، من يسعه أن يفهمك، أليس كذلك؟

ـ لا أحب استمتاعه بطرح أسئلته. ثم، لا أدري كيف أعبر لك...

ـ عبّر كيفما شئت.

ـ يحدث، كما لو أنني أحسّ...

توقفت لحظة. كان قد وضع إحدى يديه تحت ذقنه، ساكناً تماماً مرهف السمع صبوراً.

أطلقت العبارة فجأة:

ـ أنت مسؤول عني.

شعرت بالراحة والضيق في آن واحد. مكث دون حراك، لم يكشف وجهه عن أي نوع من الانفعال. أخيراً، رفع قدميه من فوق المكتب، وقدّم كرسيه، ثم أخرج من أحد الدروج علبة كبريت وسيجاراً. أشعل السيجار قائلاً بصوته الخشن والدافئ على نحو عجيب، الذي أحبه كثيراً:

ـ إنني معتاد على تحمّل مسؤولياتي.

كان محوطاً بنفثات حلزونية من الدخان الأزرق. كانت رائحة زكية تنتشر في المكان وبدأت أشعر بالراحة. لقد أعادني إلى الأرض فجأة:

ـ تريدني أن أساعدك، ونحن لا ننظر إلى القلب من وجهة نظر واحدة.

ـ أعرف، فأنت تقول إنه عضلة، مضخة.

ـ أراه كل يوم فوق طاولة العمليات.

قال ذلك وهزّ كتفيه هزاً خفيفاً.

ـ وقلبي؟

ـ قلبك؟

وبدأ يضحك بصوت جدّ خفيض. وكان حتى هذا الضحك الهادئ، يكشف عن نوع من دفء. ثم أضاف شبه جادٍ:

ـ اسمع، كان هذا القلب الذي خيطته في صدرتك، يبدو، مع ذلك، طبيعياً: دون علامات فارقة. تلاؤم كامل في الأنسجة...

ـ وتلاؤم الانفعالات؟

ـ ماذا؟

ـ لن تكون موافقاً، ولكن... إذا كان قلب هذه الفتاة اليافعة ملائماً لقلبي حقاً، فلا بد من أن تكون انفعالاتها أيضاً كذلك، أليس صحيحاً؟

شبك الدكتور «غروندان» ذراعيه وقال بهدوء بالغ:

ـ لدي فضول لأعرف ما الذي سوّغ لك الاعتقاد بهذا الشيء العجيب هكذا.

ـ الكلمات!

كان، ببساطة، ينتظر أن أتابع. فشرعت أفسّر له كيف تبعث الكلماتُ الحياةَ في الأشياء، وكيف تبحث الأشياء، بعدئذ، عن الكلام، ولكن الأمر تشوش عليّ. انسقت، مرّة أخرى، مع التيار، محاولاً التمسك، بخرق، بسلسلة متتالية من العبارات مثل: «لا يرى المرء جيداً، إلا بقلبه»، ثم استشهدت بعدد كبير من الصور الشعبية التي تعبر عن الحكمة المتراكمة منذ بدء الكون، ولكن زلّت بي القدم، فرغبت أخيراً في تبيان أن الشعراء وهم أقرب إلى الأشياء يدركون الحقائق المجهولة بالنسبة إلى عامة الناس، وتلوت أشعار «سان ـ دوني ـ غارنو». ثم توقفت خافق القلب لاهثاً.

كان الدكتور «غروندان»، الذي مكث، طوال خطبتي المملة، متحكماً في ردود أفعاله، يبدو مستغرقاً في تأملات لا متناهية. سألني فجأة:

ـ أتريد فنجاناً من القهوة؟

أجبت وقد بوغتُ:

ـ لا، شكراً.

فردّ بابتسامة شبه ساخرة:

ـ لقد استحققته بجدارة.

حينئذ، غيرت رأيي، فطلب القهوة عبر التليفون الداخلي، ممازحاً السكرتيرة في أثناء ذلك. أغمضت عينيّ. كنت أشعر وكأن نابضاً يسترخي ويسترخي، دون توقف، في داخلي...

أمَرَ صوت الجراح:

ـ شمِّر عن ساعدك!

فتحت عيني: كان الدكتور «غروندان» قريباً جداً، يمسك بين يديه مقياس ضغط طبي. ردّد الطلب بصوت ناعم لايزال آمراً. أذعنت بصمت. كان وجهه مقفلاً. لف الجهاز على ذراعي فوق المرفق، طالباً مني أن أشدّ قبضتي، ضاغطاً على «الكرة» لنفخ الهواء، مراقباً، بانتباه، حركة العقرب. أعاد الكرة، ثم نزع الجهاز. طرق الباب، في هذه اللحظة، طرقتين. دخلت السكرتيرة ثم وضعت الفنجانين على إحدى زوايا الطاولة، وعادت أدراجها بهدوء.

مرّ الجراح من خلفي. فجأة، انقلب مسند مقعدي حتى نصفه، رُفعت الوسادة ودُس ضرب من المناضد الخفيضة تحت قدمي الممدّدتين. سألني الجراح:

ـ هل أنت مرتاح؟

ـ نعم، ولكن...

ـ استرخ.

ـ ماذا جرى؟

ـ لا شيء يستدعي الأهمية. استرح. استرخِ تماماً.

أخرج زجاجة صغيرة من أحد الأدراج، وجلس على إحدى زوايا المكتب سائلاً:

ـ هل لديك شيء ضد «ريمي مارتان»[1]

ـ لا.

---

(1) من أنواع الكونياك. م.

فتح زجاجة الكونياك وسكب بضع قطرات في كل فنجان. شممت رائحة طيبة تنتشر. وضع فنجاني على منضدة صغيرة ونقّالة ودفعها حتى صارت في متناول يدي قائلاً:

ـ هيا اشربها متمهلاً. إنها ساخنة قليلاً.

واستدار ليجلس قبالتي على زاوية المكتب ويتأملني، في حين كانت القهوة التي كنت أرتشفها بجرعات صغيرة، تبث حرارتها في أجزاء جسمي كلها. كنت أفكر في والدي الذي كان يسكب لي قليلاً من الكحول ويلفني بغطاء صوفي قديم، عندما كنت أخرج مرتجفاً من مياه البحيرة الباردة، حيث كنا نسبح. رغبت في أن أقول للدكتور «غروندان» أنه قد ذكرني بوالدي، لأنه قد وهبني، مع هذا القلب الجديد، حياة جديدة. كان سيضحكك مني ويقول بطريقته شبه الخشنة، إنني أبالغ قليلاً في إسناد المسؤوليات. دفعتني الفكرة إلى الابتسام غصباً عني.

ابتسم الجراح أيضاً وهو ينظر إليّ. كان يشرب قهوته بحسوات صغيرة، وكأنه راغب في أن يقاسمني عودتي البطيئة إلى هدوئي. ثم أكّد أخيراً:

ـ لعل، الحال أفضل!

ـ أجل، حتى أنني أشعر بالدفء قليلاً.

فردّ ببساطة:

ـ إنه الكونياك.

ـ ما الذي حدث؟

ـ لا شيء يستحق الذكر، لقد هيّجت أعصابك قليلاً.

ـ مع ذلك، فليست هذه أول مرّة أحكي فيها عن...

رفع يده ليقاطعني وقال متعثراً في كلامه:

ـ إنك تتحدث عن شيء... يثيرك عميقاً.

واستدرك في الحال:

ـ إنني لم أغير رأيي، ولكنني بدأت أعتقد أنك تصدّق نفسك.

بعد أن فكرتُ لحظة، وشربت آخر جرعة من قهوتي وسألت إذا لم يكن الأمران سيان.

أجاب:

ـ أعتقد ذلك

تغير شيء في صوته: نوع من احترام، نحسّ به إزاء المجهول.

سألت ثانية:

ـ ما العمل إذن، يا دكتور؟

دَعَكَ الفنجان الكرتوني الذي كان لايزال يمسك به في يده ثم رماه في السلة بحركة بارعة سائلاً:

ـ هل استخدمت، لدى الدخول، علامتنا للخطر؟

ـ أجل.

ـ كنت تريد التحدّث بجدية؟

ـ طبعاً...

ـ لا بد من التحدّث، إذن. لم آخذ الأمور، ربما، مأخذ الجدّ، وأعتذر عن ذلك.

ـ أنا بالأحرى، من يعقّد لك الحياة!

أطفأ سيجارة، وشبّك ذراعيه مثلما يفعل غالباً عندما يبدأ حواراً جديداً.

- هل يسعني أن أطرح عليك أسئلة، كما في السابق؟

- دون شك.

- أجب عنها بأكثر ما يمكن من هدوء، دون انفعال.

- معذرة، ولكنني مستلق على هذا النحو، وأنت جالس إلى جانبي... ولا تحتاج إلا إلى مفكرة وقلم ولحية صغيرة...

فنبه بهدوء:

- الآن، أنت الذي ليس جاداً.

- إنني جاد. ولكن...

ردّ مبتسماً:

- هذه طريقتك في التعبير عن قلقك.

- أرأيت! فلقد بدأت تقوم بدور الطبيب النفسي!

فقال دون تعليق على التنويه:

- حاوِل الاسترخاء بالأحرى.

راح يسير جيئة وذهاباً، يداه خلف ظهره، ثم توقف قريباً من النافذة، وكأنه يتأمل المشهد. كانت النافذة تطل على «باسان لويز» حيث كانت مجموعة من السفن متراصفة، حبسها الجليد قريباً من صوامع الحبوب. كنت أحس، مغمض العينين، إحساساً عجيباً بأن الزمن في الخارج قد توقّف، ولكنه يسير، في داخلي، سيراً أسرع. كان يبدو لي أن الأشياء تتجلى من تلقاء ذاتها. أخيراً، سمعته يسأل:

ـ هل تخاف من قلب الفتاة في صدرك؟

ـ نعم.

ـ من الانفعالات التي ينقلها إليك؟

ـ تماماً.

ـ هل ينقلها إليك حقاً؟

رويت له كل شيء: شارع «فابريك» والمشهد الذي كان يفوتني، وموقفي الغريب مع إيليز. كنت أشعر به، حتى دون فتح عيني، حاضراً فعلاً ومتنبهاً، وكأنني ألمسه بأناملي. تركني أتحدث دون أن ينبس ببنت شفة. سأل في النهاية:

ـ ما الذي يقلقك في هذا؟

ـ نوع من رقّة تسكنني الآن. ثم...

كان ينتظر. فأضفت:

ـ ... الحاجة ـ إلى الدفء.

توقفت عن الكلام. فاستدار منوهاً ببرود:

ـ كل شيء طبيعي، حتى الآن. لاسيما بالنسبة إلى شخص لم يسترد، بعدُ كل قواه.

ـ والرقة، أهي أمر طبيعي، اليوم؟

ـ ألا تشعر بحالك طبيعياً؟

ـ لا أشعر بنفسي أمريكياً!

ـ بأي معنى؟

ـ ليس بمعنى التعرف إلى «تشايكوفسكي» عن طريق «والت ديزني».

بل على الأصح، بمعنى أن تملك في قلبك أملاً طائشاً في أن بالإمكان فعل كل شيء بالقوة. إنني لا أحس نفسي مواطناً أمريكياً.

قال:

ـ ابق هادئاً.

استأنفت الحديث ببطء أكثر:

ـ لا يوجد مكان بعدُ للرقة. فحتى النساء، عليك أن تزرع لهن قلوب الرجال!

لم يكن يقاطعني. فأضفت:

ـ والأسوأ، هو عدم وجود مخرج. الطريق الأول هو الرقة. إنه طريق مسدود.

فسأل بصوت بدا جزعاً:

ـ والطريق الثاني؟

ـ الثاني، هو الرفض، أنت تعرف جيداً. لا تبدو لك حكاية الرقّة جدّية كثيراً، وتعتقد أنها، مهما يكن من أمر، ستُسوى مع الزمن. أمّا ما يخيفك فهو الرفض. أنت تعرف مثلي، أن لا شيء في وسعه أن يمنعني، من السير على هذا الطريق حتى النهاية.

كان يبدو أن الدكتور «غروندان» قد شاخ. حوّل نحوي عينيه الوديعتين وتأملني طويلاً ثم قال في النهاية:

ـ كل شيء متعلق بالعزم على الحياة. أنت تعرف هيمنغوي. لا بد من أنك تعلم كيف كان يحب الوجود وكيف..

ـ وكيف مات؟

* * *

تتوجه قدما الشخص الذي لا جنس له، في اتّجاه شارع «دوفور»، اتعقبهما عن بُعْد معقول. تتوقفان، طويلاً، إزاء واجهة مخزن «دار لينغتون» المليء بوشائح من الصوف فاقعة الألوان جدّ جميلة، ثم تقرران العودة إلى الوراء، أتظاهر بقراءة قائمة وجبات مطعم «أو ديليس» ثم استأنف تتبّعي للخطا في اللحظة التي تنعطف فيها القدمان عند زاوية شارع «تريزور». تتسمران لحظة أمام لوحات «لويزا نيكول» المرسومة بالحبر، حيث يوجد الأطفال والخيول دائماً. بعدئذ، وإذ لم يبق رسم واحد للمشاهدة، تنسلان، بسرعة، بين الفنانين والفضوليين، وتعبران، مواربة، شارع «سانت - آن» وتدخلان حديقة «بلاس دارم» الصغيرة. يجلس الكائن الفتي على العشب، ظهره مسند إلى شجرة، وكتاب الطيور مفتوح على ركبتيه. الحديقة غاصة بالناس الجالسين على المقاعد أو على العشب حول النافورة، وعلى طول الرصيف حيث تصطف المركبات المكشوفة و«الحناطير». أبحث عن مكان مريح أجلس فيه وأراقب، عندما ألمح، فجأة، الكائن يلوّح لي بيده.

اقترب.

- اجلس، إن شئت.

أجلس قبالته قريباً جداً من قدميه وأقول:

- أشكركم شكراً جزيلاً.

- كنت تتبعني؟

- صحيح.

- حزرت ذلك. لديّ خبرة كبيرة.

* * *

كانت الريح باردة وكنت قد مشيت كثيراً. توقفت عند حانوت

للأزهار في أسفل شارع «فابريك» المنحدِر، وطلبت من البائعة أن تجهز لي باقة من زهور القرنفل البيضاء والحمراء. عرضت عليّ الأسعار وسحبت الأزهار من قفص زجاجي وحملتها إلى خلفية الحانوت.

تقدّم رجل، تدل هيئته النظيفة وثقته بالنفس على أنه صاحب المحل، حيّاني مستطرداً:

ـ الجو بارد، أليس كذلك؟

قلت:

ـ إنه الشتاء.

جلستُ على مقعد خفيض، قريباً من منضدة حيث توجد بطاقات التهنئة وقلم حبر معلق بسلسلة على الجدار. وكي أقول شيئاً، طرحت سؤالاً يتعلق بنبتة كبيرة قريبة مني. أوضح لي صاحب الحانوت اسم النبتة وميزاتها وسبب كون لون الأوراق السفلى أكثر دكنةً. كان يهذر. وكنت أصغي شارداً. كانت النباتات تذكرني بالحيوانات. تمساح في الحمّام. فجأة، أدركت ما قاله تواً:

ـ من حسن الحظ، إنه ما عاد لدي الآن كلب!

ـ عفواً؟

ـ تخيل نفسك تنزّه كلباً في الشارع في مثل هذا الجو؟ لقد بعته في بداية الشتاء.

ـ إنني أفضل القطط.

شرع، دون مقدمات، يروي لي إنه أمضى طفولته في «ليڤي» عند ضفة صخرية. كان يربي الحمائم في ما يشبه الكوخ، وعندما يحتاج إلى خمسة وعشرين سنتاً، يقتنص حمامة ويبيعها للصينيين الذين يحمصونها

ثم يأكلونها. وانتهى به الأمر بأن باع جميع حمائمه للصينيين. عادت البائعة تحمل باقة الأزهار. قدمتها لي فدفعت الثمن وسرّني الانصراف.

سرت، صُعداً، في شارعي «فابريك» و«دي جاردان» ومنحدر «هالديماند». عند زاوية شارع «مون ـ كارميل»، هبّت عليّ ريح شمالية عنيفة. رفعتُ قبعة معطفي، وانثنيت إلى الأمام. متأبطاً باقة الأزهار درت، بعناء، حول الحديقة المدفونة تحت الثلج. لا سبيل إلى إبعاد الصورة الكريهة للصينيين والحمائم المحمّصة. الامتناع الأبدي عن تناول الطعام الصيني.

صعدت السلّم ببطء وعناء، مفكراً في الدكتور «غروندان». نصحني بالانتقال عن المنزل، وأجبته بأنني متعلق برؤية النهر، كما بحياتي وأفضّل المجازفة. زعم، بأني على خطأ وألح متحدثاً عن مراتب القيم. لاعباً، دون اتقان، بمعنى كلمتي «مراتب» و«سلّم» انتزعت منه الابتسامة والموافقة.

أدرت المفتاح في القفل. انفتح الباب قليلاً ثم علق: سلسلة الأمان. المنزل الصغير المترس في عمق الحديقة. كانت الساعة تقارب الرابعة وبضع دقائق، وسررت بعودة إيليز، أبكر من المعتاد، إلى البيت.

لقد سمعتْ حتماً.

في الداخل، ولا نأمة.

قرعت الجرس.

لم تكن تأتي. كانت في الحمام دون شك. قرعت ثانية قرعتين قصيرتين. كانت تنهض عارية تماماً وتجفف، بنشاط، جسمها بمنشفة كبيرة زرقاء، وتدس قدميها في خفيها، وترتدي مبذلها وتعقد حزامها وتجيء، وتفتح... لكن، لا، فإنها لم تسمع. أدنيت رأسي، من فرجة

الباب وصفرت بهدوء مرتين. وأرهفت السمع: لا شيء. كنت أرغب في الجلوس، في الاستراحة. كان صبري قد بدأ ينفد. ضغطت على زر الجرس وأنا أعدّ حتى عشرة. لابد من أن العمارة كلها قد سمعت ذلك! بعدئذ جلست على أول درجة للسلّم واضعاً باقة أزهاري جانباً، وأشعلت سيجارة.

صوت السلسلة. انفتح الباب. التفتُّ.

سألت إيليز:

ـ أهذا أنت؟

كانت عند العتبة في مبذلها وخفيها، تماماً كما تخيلتها، فتلاشى تبرمي حالاً. قلت:

ـ ها هو ذا بابا نويل.

قالت ضاحكة:

ـ كنت أعتقد أنك في مكان ما في «ڤيو ـ كيبيك».

ـ إنني في مكان ما في «ڤيو ـ كيبيك».

ـ إنك شاحب. ألست على ما يرام؟

ـ أنا تعِب. أما كنت تسمعين صوت الجرس.

ـ كلا.

ـ هل كنتِ في الحمام؟

ـ جلبت لي أزهاراً؟ لا تمكث جالساً هناك.

ـ هل كنت تستحمين؟

ـ نعم.

نهضتُ. قبّلتني من أنفي، تناولت باقة الأزهار ودخلت أمامي. تبعتها وأغلقتُ الباب. قالت بصوت عال:

ـ إنه يجلب لي الأزهار، أمّا أنا فأدعه ينتظر في الخارج عبثاً، إنه لذنب لا يُغْتَفر.

وضعت الباقة فوق إحدى الطاولات وعادت إليّ قائلة:

ـ أعطني معطفك. ستذهب لتستريح. هل تريد خفيك الصوفيين؟ تبدو مُتْعَباً حقاً. هل تعرف يا عزيزي؟ ـ لديّ زائر.

كان ثمة رجل في البهو. قام. كان بالغ الطول مَحْني الظهر قليلاً، مقفى الشعر إحدى ذراعيه في الجبس.

قالت إيليز:

ـ أقدّم لك «بيل» يا عزيزي.

ـ كان الاسم يذكرني بشيء. تقدّم، ومدّ لي يده اليسرى. فأضافت إيليز:

ـ زوجي «نويل».

قال «بيل»:

ـ سعيد جداً بمعرفتك. لقد سبق أن رأيت صورتك في المجلة.

كان الصوت أيضاً يذكرني بـ...

صوت أبح على نحو غريب، وكأنه ليس صوته. قلت:

ـ سعيد أيضاً. هل أنت جريح؟

شرحت إيليز:

ـ لقد كسّر زَنْده. إن «بيل» لاعب «هوكي».

ـ في أي اتحاد؟

أجاب «بيل»:

ـ الاتحاد الأمريكي[1].

ـ هل جئت إلى «كيبيك» من أجل الكرنفال؟

ـ إنني في فريق «آس» منذ شهر تشرين الثاني. لقد تخلى عني فريق «فلايرز» في «فيلاديلفيا» لمصلحة فريق «كيبيك. ألا تحب الهوكي؟».

ـ طبعاً، أحب.

قالت إيليز:

ـ لم يتابع «نويل» الهوكي بسبب عمليته. ولكنه، عادة، مهوّس حقيقي.

فقلتُ بكل صدق:

ـ هذا صحيح.

قالت:

ـ لقد جلب لي أزهاراً. سأضعها في المزهرية.

ابتسم لاعب الهوكي. غابت إيليز في المطبخ. دعوت الضيف إلى الجلوس.

فقال:

ـ شكراً. يجب أن أنصرف.

---

(1) الاتحاد الوطني للهوكي يشمل فرق الولايات المتحدة وكندا كافة أمّا الاتحاد الأمريكي فهو دون مستوى الاتحاد الوطني، ولا يضم سوى بعض الفرق الكندية والأمريكية. م.

ومع ذلك جلس، فغاصت عميقاً، حشية الأريكة. وكرر:

ـ لقد رأيت صورتك في المجلة.

ـ في «فيلادلفيا»؟

ـ نعم. كان جميع الناس يتحدثون عن «الرجل بقلب فتاة». جلست في طرف الأريكة. كانت الحشية جدّ عالية بسبب الوزن الثقيل في الطرف الآخر، أحسست بأنني سأتدحرج نحو الوسط. كنت منهكاً، خفت أن أنفجر ضاحكاً. فسألت:

ـ كيف حصلت إصابتك؟

أجاب وهو يطبطب على الجبس فوق زنده:

ـ مشاجرة.

ـ هل صار فريق الـ «آس» أفضل، في هذه السنة؟

بدا يفكر جاداً. ثم أجاب:

ـ كلا، ولكن لا تقل هذا لأحد!

دافعاً رأسه إلى الخلف، انفجر في ضحك صاف يكاد يكون شفافاً. كنت سأضحك أيضاً، ولكني كنت أشعر ببداية دُوار، وبألم في ذراعي اليسرى. رجعت إيليز، وضعت باقة الأزهار على المنضدة الصغيرة أمامنا، وجلست على الكرسي. قال لاعب الهوكي:

ـ إنها جميلة جداً.

فردت:

ـ شكراً جزيلاً.

هل تقول له أم لي ذلك. لو كانت جالسة بين كلينا لانزلقت صوب

لاعب الهوكي: كانت الحشية تميل من ذاك الجانب. كنت أحس بالدوار أكثر فأكثر.

قال «بيل»:

- إنني أحب الأزهار، ولكنني لا أتذكر أبداً أسماءها.

فقالت إيليز:

- هذا ليس مهماً بالنسبة إلى لاعب هوكي.

أنا غير موافق. غير موافق أبداً. فعلى جميع الناس أن يعرفوا أسماء الأزهار والأشجار والطيور. ثمة خوري يعلن من على منبر، أن هذا واجب على الجميع تحت طائلة الخطيئة المميتة، ويوجد ببَّغاء متعدد الألوان على كتفه، والكنيسة ملأى بالأزهار والأشجار والطيور، وهناك رجل بالغ الطول فوق مذبح رئيسي، في ثوب ضافٍ وشعر طويل كشعر امرأة والرأس مُطوَّق بالأشواك، وفي صدره يظهر، جلياً، قلبه المنفطر ينزف دماً...

فتحت عينيّ.

كانت إيليز جالسة فوق السرير. سألتها:

- ماذا تفعلين؟

- عليك أن تتناول هذه.

- ماذا؟

جلستُ. كانت تمسك حبَّة وكأساً من الماء.

- لماذا؟

طلب إليَّ الطبيب أن أوقظك في الساعة التاسعة لتأخذ هذه. والآن هو الساعة التاسعة.

ـ هل جاء؟

ـ لقد أفزعتنا فزعاً شديداً: دهمك النعاس في البهو.

ـ مَن الذي نقلني إلى هنا؟

ـ ابلع هذه.

ـ لاعب الهوكي؟

فردّت إيليز بهدوء:

ـ اسمه «بيل».

تناولتُ الحبّة وابتلعت جرعة ماء.

ـ ماذا قال؟

ـ قال إنك لست ثقيلاً أبداً. لقد رفعك فوق كتفه بيد واحدة.

ـ لا، أقصد الدكتور. ماذا قال؟

ـ قال، لا شيء يستدعي الخطر. إنه تعب بسيط، ليس إلّا.

ـ وبعد؟

ـ قال إن قلبك سليم. حقنك إبرة وطلب إيقاظك بعد أربع ساعات لتناول الحبّة. هذا كل شيء.

ـ ولكني عُرْيان!

ـ طبعاً.

ـ لاعب الهوكي؟

ـ لا، إنما أنا. اهدأ قليلاً. إنك تتعب نفسك عبثاً.

ـ أتقسمين على ذلك؟

ـ غير معقول يا عزيزي، إنك أسوأ من طفل!

تمددتُ ثانية، فأعادت اللحف عليّ، كنت قد بدأت أشعر بالخدر. كان جفناي ثقيلين. مالت عليّ إيليز.

ـ كيف تجد نفسك؟

ـ كما لو أني أرحل...

ـ إنها الحبَّة. أغمض عينيك.

أغمضت عيني وقلت بعناء:

ـ كما لو أنك... ترحلين أيضاً.

ـ لا تقلق، ستغفو.

بعدئذ، سمعتها تهمس همساً تتخلله ابتسامة.

ـ هل ترى، يا عزيزي، لقد كنت محقَّة.

ـ ....

ـ «بيل»، إنه الصوت الذي كنا نسمعه من الطرف الآخر للجدار.

وأضافت كأنما لنفسها:

ـ كنت تقول إنها امرأة.

كان النعاس يضغط، بشدة أكثر فأكثر، على جفني. سمعت، ثانية، من بعيد جداً، صوت إيليز:

ـ ترى بعينيك إنه رجل.

لم أسمع بعد ذلك شيئاً. كنت أهبط، سريعاً، في منحدر.

* * *

فوجئت قليلاً. فسألتُ:

ـ أتعتقدين أن المرء يقتني، في سن مثل سنك، خبرة كبيرة؟

لا تردّ. أحاول أن أشرح لها:

ـ كنت أتعقّبك بسبب الكتاب، أقصد... بسبب ما كانت العجوز ماري تقول عن الطيور.. ولكنك لا تعرفين العجوز ماري.

لا تقول شيئاً.

تابعت:

ـ هل تعرفين ماذا....

ـ ماذا؟

ـ كنت على وشك أن أسألك هل أنت فتى أم فتاة!

ـ هذا غير مهم.

ـ يتضح حالاً أنك فتاة بسبب قدميك.

ـ الأوردة الرفيعة الزرقاء؟

ـ طبعاً. لم ألحظها في البداية.

ردّت بتمهل:

ـ لا يلحظ المرء دائماً. اسمي شارلي.

ـ أليس هذا اسم صبي؟

ـ وما أهمية ذلك.

لم تقل ذلك بصيغة سؤال، إنما، صراحة، بصيغة توكيد. نطقت لها باسمي، فعلّقت:

ـ إنه جدّ جميل. عندما يُعكس يصير «ليون».

قلت مهاناً قليلاً:

- أفضِّل فعلاً أن لا يُعكس.

قالت وكأنها تحاول مؤاساتي:

يسمونني، أيضاً، «الحوت الأزرق».

- لماذا؟

- بسبب تنفّسي. إنني أتنفس، كما يبدو، بقوة شديدة. فأرهفت السمع قائلاً:

لا أسمع شيئاً.

- عندما أكون مستلقية فقط. إنها قصة قديمة ولا يسعني أن أرويها لك لأن.

أفكِّر، بغتة، في الدكتور «غروندان» فأشعر بوخزة في أعماقي. سألتُ:

- قصة مع رجل؟

- ماذا؟ من روى لك هذا؟ أهو سيمون؟

- لا أعرف سيمون. معذرة، ولكن لا بد من أن أسألك عن سنّك. فهذا أمر مهم.

تمتمت:

- لم يكن سيمون ليفعل هذا. ولكن، لا يوجد أحد سواه...

- من هو سيمون؟

- سيمون هو سيمون. سيمون الحوذي.

- مَنْ؟

ـ صَهْ، أصغ...

خلل خرير النبع وصخب الحافلات وضجة الناس المبهمة، يُسمع إيقاع متقطع لحافر حصان على الإسفلت. «حنطور» أحمر، دلف إلى شارع سانت ـ آن.

قالت:

إنني أتعرّف إلى الحصان دائماً، حتى دون أن ألتفت. إنه يعرج قليلاً.

يبتعد «الحنطور» سريعاً، ويختفي عن ناظري الرجل الذي يمسك العنان: ظهر عريض وشعر أشيب على الرقبة. سألتُ:

ـ أهو والدك؟

فتجيب بالنبرة ذاتها التي أجابت بها تواً:

ـ وماذا يهمّ هذا.

تنظر إليّ ولا تسعني معرفة ما إذا كنت قد أخطأت. فثمة بعض الناس تصعب، على المرء، قراءة عيونهم حقاً، فيتخيل أشياء.

* * *

كنت ألج قصتي رويداً، رويداً.

بقدر ما كانت السحب الداخلية تتبدّد، كنت أتبين شخصياتي. كان جيمي أشعث الشعر، وبذلة «الكوبوي» المرقّعة الناحلة اللون، صغيرة جداً عليه. أمّا سجينته فذات شعر أشقر مسترسل على الكتفين، ووجه احتفظ باستدارته الطفولية، وعينين خضراوين، ترتدي تنورة جدّ قصيرة، وصِداراً أبيض مُخرّم الياقة والردنين.

جدّ ساذجة بعينيها الواسعتين الحائرتين، كانت، مع ذلك، فضولية تميل إلى المغامرة. كان الفتى، شأنه شأنها، ساذجاً أيضاً، ولكنه كان

يتصنّع. كان يحمل في أحد جيبي قميصه كيساً من تبغ «ألويت» وورق «ڤوغ» وكان، من حين لآخر، يلف بلا مبالاة دائبة، سيجارة ويفرقع عود ثقاب بظفر إبهامه ويبث حوله سحباً من الدخان. كان يحسب نفسه رجل «كوبوي» حقيقياً. لقد بدأ هذه القصة ليصير مهماً في عيني سجينته، ولكنه في النهاية ما عاد يميز الخطأ من الصواب: كان يؤكد، بلا حياء، إن حصانه مربوط إلى إحدى الأشجار في أعلى الجرف، ويخرج مرات عديدة في اليوم، متذرعاً بعلف الحصان أو بجولة على ظهره حتى القرية. كانت تطرح، هي الواقعية جداً، أسئلة محدّدة، وتناقش أجوبته، وتعترض، مرغمة إياه، بذلك، على الاستغراق في عالمه الخيالي. تقول له:

ـ حتى إن رائحة الحصان لا تفوح منك.

ـ لا تفوح رائحة الأحصنة، إلّا عندما تتعرّق.

ـ وحصانك، ألا يتعرّق؟

ـ القرية ليست بعيدة.

ـ لماذا ذهبت، إذن، ممتطياً ظهر الحصان؟

ـ إنني أسافر، راكباً الحصان دائماً. عندما كنت يافعاً، في الغرب...

كان يبتكر سهولاً شاسعة في سفح جبال «روشوز» حيث كان يجب عليه أن يجوبها، كل يوم، على ظهر الحصان، عندما كان والده ورجال «الكوبوي» في المزرعة الكبيرة يجمعون المواشي تحت الشمس المحرقة، وبندقية موضوعة، عرضاً، على السرج، للدفاع عن نفسه من الهنود الحمر الذين كانت تنبلج طيوفهم الخطيرة من فوق القمم. كان يتحدث كذلك عن صوت الطبول وإشارات الدخان.

كانت تسأل:

ـ لماذا لم تبق في الغرب؟

ـ لقد قُتل أبي. وباع جدّي المزرعة وركبنا القطار.

ـ كيف قُتل؟ الهنود الحمر؟

ـ سهم في الظهر. كان قد توقف عند نهر ليشرب. ولكنه كان سيموت على كل حال.

ـ لماذا؟

ـ كان الماء مسمّماً.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ كانت هياكل حيوانات توجد عند ضفة النهر. هذه علامة. إذا رأيت هياكل حيوانات فكوني على يقين من أن الماء مسمّم.

ـ ألم ير والدك الهياكل؟

ـ رآها، ولكنه كان يفعل دائماً ما يرغب فيه. الرجل يفعل هذا دائماً، هل تفهمين؟

ـ وأمّك، أما كانت تقول شيئاً؟

ـ لابد من أنك جائعة، الآن...

ـ وأمّك؟

ـ أمي؟ دعي أمي وشأنها! لا أريد أن تتحدثي عن أمي! هل تسمعين؟

ـ لا حاجة إلى أن تصرخ هكذا!

ـ إنني لا أصرخ أبداً! ولكنني أخشى الغضب، إن أنت تابعت.

ـ لا بأس، لابأس، لن أتحدث عنها أكثر. قَسَماً.

ـ أقسمي برأس جدتك.

ـ أقسم برأس جدتي.

كانت تعض شفتيها. قالت:

ـ أعتقد أنني جائعة، الآن.

ـ سأعدّ الـ «نسله كويك».

كان يتخيل: «أنا شارب النسله العتيد»، كما لو أنه فتح تواً، بركلة قوية، بابي حانة في إحدى مدن «فار ويست»: رجال «الكوبوي» جميعاً، جالسون إلى الموائد أو واقفون عند المشرب يسدون أفواههم الكبيرة ويلتفتون نحوه. يقف مستقيم القامة ساكناً، مسمَّراً في الصمت، يداه، بمحاذاة جسمه، متأهباً، لصرع أول من يتحرك.

قال بصوت شبه أجش:

ـ إذا كنت تفضلين «كاكاوا» ساخنة، ففي الوسع إعدادها لك.

ـ لا، شكراً.

ـ في الوسع تماماً تسخين الحليب وكل شيء، بالضبط كما يجب.

ـ لا بأس، شكراً جزيلاً.

سكب الحليب، تناول علبة الـ «نسله» من الخزانة. أضاف ملعقتين من الـ «كاكاوا» لكل فنجان، حرّك السائل طويلاً كي لا يتخثر. وقدّم لها فنجاناً. فقالت:

ـ في وسعك أن تسقيني.

ـ لماذا؟

ـ يداي!

كان قد نسي. اعتذر. فكّر لحظة ثم قرّر:

ـ سأحلّ يداً واحدة.

مرّ من خلف الكرسي، فكّ إحدى اليدين مُطْمئناً إلى أن اليد الثانية والعَقبين تبقى مربوطة جيداً. حكّت رُسغها المتوجع بشفتيها، تناولت الفنجان الذي قدّمه لها وأفرغته جرعةً واحدة.

ـ إذا كنت ترغبين في البسكويت، فبإمكانك اختياره بالعسل أو بالشوكولا.

ـ لا، شكراً.

ابتسمت له، متألقة العينين. كانت مادة داكنة تسيل ببطء من زاوية فمها. أعادت له الفنجان قائلة:

ـ كان لذيذاً جداً.

ـ ستلوثين قميصك.

ـ في وسعك أن تمسح فمي، إذا شئت.

ـ ماذا؟

ـ بمنديل «كلينيكس» أو بمنشفة مبللة.

شرب جرعة من «نسله كويك» ثم أعلن:

ـ سأحلّ وثاقك، ولكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ اقسمي بأنك لن تحاولي الهروب.

ـ اقسم برأس جدتي.

ـ إذا فررت، سأغتصبك بعنف.

ـ سبق لك أن قلت إنك لن تلفظ هذه الكلمة بعد الآن أبداً.

ـ صحيح، اعذريني.

قالت باعتزاز:

ـ أمّا أنا، فأفي بوعودي دائماً.

لم يجادل. جثا إلى جانبها، وحررها من أغلالها تماماً. فقالت ببساطة:

ـ شكراً.

مطّت ذراعيها وساقيها، وذهبت إلى الصنبور تغسل وجهها. كان جيمي يراقبها. سأل بغتةً:

ـ ما هو برجك؟

أجابت منشّفة وجهها بمنشفة:

ـ برج الميزان.

حظ سيء، يقول في نفسه. تريد اغتصاب فتاة، وتُرغم على أن يصادفك هذا «الميزان» اللعين. إنهن لا يعرفن أبداً ما يردن، ويعجزن عن التصميم، ولا يرغبن في السير حتى النهاية. والأسوأ، هو أنهن مخلصات. إنه طالع نحس حقاً: يوجد اثنا عشر برجاً، أما أنت فيصادفك «الميزان» اللعين. «بريجيت باردو» أيضاً من برج الميزان. لا أقول إنه كان بودي أن أقع على «بريجيت باردو» ليس بالضرورة. أقصد: إنها في رأيي، ليست جدّية بما فيه الكفاية. موافق، إنها شهوانية. على نحو مُرعب وحسب، غير أنها ليست جدية بما فيه الكفاية. حاول أن تفكر لحظة في أنك ستغتصب «بريجيت باردو»: إنه لأمر غير جدّي أبداً. إنك تحلم. فلنفترض أنك تشرح لها مرامك وأنك ترغب في فعل هذا بغية بلوغ السكينة فقط: ثمة

احتمال، تسعة وتسعين بالمائة، أن تنفجر ضاحكة مثل مجنونة، تعبث بشعرها وتطلب إليك أن تذهب وتمثّل دور «الكوبوي» في مكان آخر. وإذا لم تضحك، لحسن الحظ، في وجهك، فستتظاهر بأنها موافقة وتدرك القضية كلها، غير أن ذلك سيكون، في الواقع تمثيلاً. ستكون محظوظاً إن لم تنفجر ضاحكة في اللحظة التي ستخرج فيها «دبلومك».

أنا من كان، بلا ريب، من مواليد هذا البرج، واكتسب منه الطبع المتردد، بل هذه الشخصية المزدوجة. مُتعقباً مجرى أحداث هذه القصة، ذهبت، دون أن أعرف ذلك، بحثاً عن الذات. كنت أصعد نحو النبع، وأشتبه بهاتين الشخصيتين اليافعتين اللتين تمنيت لهما مغامرة عنيفة، ولكن اللتين سرعان ما صارتا تتعاملان، الواحدة مع الأخرى، كشقيق وشقيقة، ولا ترغبان إلا في أن تكونا الصورة المزدوجة لمن سمّته الصحف، بسفاهة، «الرجل بقلب فتاة».

لم أكن ساذجاً إلى درجة العثور على التفسير المقنع. كان كل ما يتمّ في داخلي، منذ العملية، ضبابياً وغامضاً. كنت أفقد صفائي أكثر فأكثر. صرت أقتنع أن المرء لا يبتكر، في أثناء الكتابة، سوى الصور الراقدة في ذاته.

ثم كنت أكتب بعناء. أعني: كنت أكتب بوجل، كما لو أن هناك شيئاً مقلقاً في نهاية الكلمات، كما لو أني سأجد نفسي فجأة وجهاً لوجه، في خلال منعطف إحدى الجمل، إزاء شيء، لا أعرفه، مُنْذر ومتعذّر إصلاحه. مع ذلك، كنت أتابع، وأحس بشيء يحثني على ذلك. لم أكن كاتباً حقيقياً، إنما كنت مدفوعاً برغبة، لا تُقهر، في الابتكار والتعبير أو في التواصل. كان ذلك بالأحرى أشبه بفكرة مُتسلطة. كان يمكن القول إن الكلمات كانت تشكّل، في الوقت ذاته، المخرج الوحيد

الممكن، وهو ضرب من «مُسَارَة»[1] ومن طقس عبور، أشبه بما كانت بعض القبائل البدائية تخضع له المراهقين الذين كانوا يعلنون أنهم قد صاروا رجالاً.

* * *

قريباً من «النافورة» أسأل مرّة ثانية، «شارلي ـ الحوت الأزرق»:

ـ كم هو عمرك؟

تردّ بنبرة تشوبها مسحة من السويداء.

ـ لا عمر لي.

ترفع إحدى كتفيها، بما فيه الكفاية، ثم تميل برأسها جانباً وتحك خدها بكتفها وتسأل فجأة:

ـ هل سمعت؟

ـ ماذا؟

ـ العصفور.

ـ الدوري؟

تقول مقلّدة العصفور:

ـ شيك ـ آ ـ دي ـ دي ـ دي. ليس الدوري! إنما القُرْقُب[2] ذو الرأس الأسود!

تشير يدها إلى شجرة بتولا اخترقت أغصانها المشبك الحديدي خلف كنيسة «البروتستانت» القديمة.

---

(1) مُسَارَة: احتفالات كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة. المنهل.

(2) طائر صغير من الجواثيم المخروطيات المناقير. المنهل.

أقول:

- إنني لا أرى شيئاً قط.

- إنه ذكر.

- ....

تشرح بأناة:

- بسبب ألوانه الفاقعة وكذا تغريده. فألوان الإناث باهتة، وليس غناؤها سوى صياح تنبيه.

- فالنساء هن من يحببن الألوان عادة، ومَن...

تبتسم. إنها غير موافقة، ولكنني كنت سأتوقف، على كل حال، بسبب طريقتها في الابتسام. تدعوني، بحركة من رأسها، إلى أن التفت: إزاء النافورة يحوط عشرة من الشبان، عجوزاً ينقر قيثارته. إنهم، جميعاً يرتدون الحلّي والثياب الزاهية الألوان.

أقول:

- لا يلبس الناس على هذا النحو. إنهم شَوَاذ.

تردّ محافظةً على هدوئها:

- يقول الحوذي، إنه لابد من البحث عن الحقيقة وسط الشَوَاذ.

- يمكنه أن يخطئ.

أندم على ما قلت. أفكر ثانية في ما انتابني من إحساس قلق عندما كنت أرتجح، تواً بين المذكر والمؤنث: في وسع الحقيقة أن تظهر للعالم، ليس مهماً كيف، بل حتى بصيغة انفعال. أقول:

- اعذريني.

تَطّلع على فهرس كتابها. وتفتحه في المكان المعين قائلة:

ـ انظر.

تشير لي باصبعها إلى قُرقُب ذي رأس أسود على لوحة ملونة. أقول:

ـ إنه جميل جداً.

ـ الطيور كلها جميلة، كما تعلم.

ـ إنها تسحرني، ولكنها تفزعني في الوقت نفسه.

ـ أعرف.

ـ ليس في وسعك أن تعرفي.

ـ إنه لأمر بسيط، إذ نخاف من الأشياء التي في داخلنا.

ـ هل أنت طالبة؟

ـ كلا.

ـ إذن فأنت تعملين؟

ـ كلا.

تضحك.

ـ إنني أهتم بالطيور. فلا بد من أن يهتم أحدٌ بها.

تضحك ثانية. ثم تنوه:

ـ تتعقّب الناس، تطرح أسئلة...

أقول مرتبكاً بعض الشيء:

ـ إنني أبحث.

ثم لا تقول شيئاً.

ـ أبحث عما يوجد في النهاية..

أقول ذلك، مستغرقاً ثانية في وضع مضحك.

تغلق الكتاب، تضمه إلى صدرها وتشبك ذراعيها فوقه. تتفحصني وهلةً وتقول مبتسمة:

ـ تبدو كأنك نجوت من خطر كبير.

أخرج، شارداً، سيجارةً. فتقول:

ـ واحدة من أجل شارلي.

ـ معذرة.

أمدّ لها علبتي، أقدّم لها النار ثم أشعل سيجارتي سائلاً:

ـ ألست قلقة؟

ـ إنني أهتم بالطيور، ويهتم سيمون بي.

ـ أقصد: ألا تشعرين أحياناً أن الحياة قاسية للغاية؟ وإن هذا يسحقك؟

ـ إنك لا تعرف سيمون.

تدخن في صمت. أسألها:

ـ هل تقرأين كتباً؟

فتقول بغتة:

ـ إنني جد جائعة.

ـ ألم تتناولي طعام الغداء؟

ـ كلا. ولا طعام الفطور.

ـ هل ترغبين في أن نذهب إلى المطعم؟

تنهض قائلة:

ـ سأذهب إلى أصدقاء.

ـ أين؟

ـ لا أدري. سأبحث... لا مال عندي ولا شيء.

ـ إن كان الأمر لا يضجرك ففي وسعك الذهاب معي.

ـ أهو بعيد؟

ـ جد قريب. في الطرف الآخر من الـ «شاتو».

ـ موافقة. إنني آكل أقل من عصفور، ولكن لابد، على الرغم من ذلك، من أن آكل قليلاً، وإلا...

وضعت يديها مضمومتين، على خدّها وأحنت رأسها مثل طفل نائم في الليل. لم تجب عن سؤالي المتعلق بالكتب. إنها لا تجيب دائماً.

* * *

ـ إذن، لقد لعبت في الاتحاد الوطني؟

ـ أي، نعم!

كان فخوراً بذلك.

عشر مرات على الأقل، طرحت عليه هذا السؤال. كان «بيل» يزورنا يومياً. في البداية، كانت إيليز تدعوه. كانت تدق على الجدار دقّات معينة: إنه رمز بينهما، ثم صار، مع مرور الزمن، يأتي دون دعوة. تمت محاورات طويلة حول الهوكي. كنت أسأل:

ـ في أي موقع تلعب؟

ـ جناح أيسر.

ـ من هو اللاعب الذي تصعب متابعته أكثر؟

ـ «غوردي هاو»، طبعاً.

شرب جرعة من جعة «مولسون» وأضاف:

ـ كان معبودي دائماً. عندما كنت يافعاً...

توقّف ونظر إلى إيليز. لا أعرف إن كان ينظر إليها حقاً أو يغوص في طفولته.

كنت أفكر دائماً في أن لاعبي الهوكي لا يملكون طفولة. أقصد: إنهم لا يعيشون مع طفولتهم، باستثناء عدد قليل مثل «فرانك ما هو ڤليتش» و«بوب روسّو» اللذين لايزالان يجران جزءاً من طفولتهما في ميدان التزلج. كنت أرغب في أن أتحدث إلى «بيل» عن ذلك ويمنعني نوع من حياء.

ـ هل لعبت ضد «هاو» في هذه السنة؟

أجاب وهو ينظر إلى «إيليز»:

ـ أجل، مرتين.

ثم تابع:

ـ لقد حقق خمسة أهداف ضدي. أمّا أنا فلم أستطع القيام حتى بتمرير واحد يتكلل بهدف! ربما لذلك وجدت نفسي في الاتحاد الأمريكي...

ـ أهو خشن مثلما يُقال عنه؟

ـ هذه، من أثاره!

قال ذلك مشيراً إلى ندبة فوق عينه اليسرى وفسّر:

- خبطني بمرفقه، فارتميت، يسبقني رأسي، على سور الملعب. نهضت. اندلع الشَغَب. لا أذكر ما حدث بعد ذلك: تركت ميدان التزلج على نقّالة.

يضحك بغطرسة غريبة قليلاً. تقول إيليز:

- كان يمكن لجرحك أن يكون بليغاً.

يبتسم لها دون أن يقول شيئاً. كان يبتسم عندما لا يقول شيئاً. كانت إيليز تخاطبه بـ «أنتم» حيناً، وبـ «أنت» حيناً آخر. كان من الصعب التكهن بذلك، الأمر الذي كان يبعث في المكان، إحساساً بالدفء، كما لو أننا، نحن الثلاثة، قد احتسينا «الجن» الساخن بالليمون مع ملعقة من العسل. سألتُ لاعب الهوكي مرّة أخرى:

- هل يعدّ «غوردي هاو» أفضل من «موريس ريشار»[1]؟

فكّر ملياً. كان جبينه قد تغضّن، على كل حال، في أربعة تجعّدات جلية. ماسكاً كأس الجعة بين يديه، أجاب:

- تعرف، إنني كنت يافعاً صغير السن عندما كان ريشار في عنفوانه. لذلك ليس الأمر سهلاً.

ثم، بعد دقيقة طويلة من التردد:

- كان ريشار استعراضياً أكثر. أمّا «غوردي هاو» فهو مكتمل الصفات. يعدّ كلاهما أكبر لاعب في العالم.

---

(1) موريس ريشار. لاعب كيبيكي لمع نجمه في الستينيات حتى صار واحداً من أشهر لاعبي الهوكي في كندا وأمريكا. عدّه ويعدّه الكيبيكيون مفخرة وطنية. م.

ـ و«بوبي هول»؟

ـ فلننتظر، فلننتظر، بضع سنوات أخرى. فلقد بدأ يتحدث عن الاعتزال. لست على يقين من نبوغه.

كنت أجد أحكامه صائبة، ويسرني التحدّث إليه. قدّمت له زجاجة جعة أخرى، وافق بعد أن ألقى نظرة على إيليز. سألني:

ـ ألا تشرب أبداً؟

ـ تقريباً، أبداً.

ـ بسبب...

ـ وهو كذلك.

طلبت من إيليز أن تعدّ لي فنجاناً من القهوة. واستأنفت الحديث، في الحال، عن «ريشار» و«هاو». كنت أحس، كلما تكلمت عن «ريشار» أو سمعت اسمه، شيئاً قديماً يتحرك في داخلي، مثل حيوان نائم منذ العملية، يتقلقل، بهدوء، في نومه. كنت أصغي إلى لاعب الهوكي، ولكني كنت أرغب في أن أتحدث إليه عن الطلعات البديعة التي كان ريشار يقوم بها وهو يلتف حول مرماه وعن الهدف الشهير الذي سجله مع وجود لاعب خصم متشبث بظهره، وعن المعارك الأسطورية، وعن الهياج الشعبي الذي أحدثه توقيفه من قبل رئيس الفريق «كامبل» في الملعب وشارع «سانت ـ كاترين»، وعن الحزن الذي ينتاب المرء وهو يراه يجرّ ساقه في نهاية حياته المهنية الخارقة. كان بودي أن يدرك «بيل» إلى أية درجة كانت صورة ريشار حيّة في قلوب الناس من جيلي، وكيف أن ذكراه تثير أحاسيس جدّ عميقة تبلغ أبعد الجذور حتى هذا الرصيد المشترك الذي يكوّن عرقنا. كنت أحس بغصّة في حلقي، وبهذه الأشياء

كلها تفور في داخلي ولا أستطيع التعبير عنها. كانت، في الظاهر، سحابة رقة وبحرٍ راكد يسدان كل شيء.

أحضرت إيليز القهوة وهمست مع طرفة عين متواطئة:

ـ لقد وضعت قطرة من الكونياك.

ـ شكراً.

احتسيت جرعة صغيرة وسألت «بيل» عن رأيه في الشاب «كورنوايه».

أجاب:

ـ إنه أكثر من يشبه «ريشار». على الأقل ما بين الخط الأزرق والمرمى.

ـ من هو أكثر اللاعبين مكراً؟

ـ ميكيتا.

ـ أهو خشن؟

ـ ردّ بشيء من النفور:

ـ ليس تماماً. يسجّل أهدافه خفية.

ـ من هو أكثر اللاعبين خشونة؟

تريث. كان اهتمامه بالسؤال جلياً. فهو ميدان اختصاصه. ثم سأل:

ـ أتفكر في «جون فيرغوسون» أم في «ايدّي شاك»؟

ـ نعم.

ـ ألأنهما يجتازان الملعب كي يدفعا بعنف أحداً في الجوانب؟

ـ طبعاً.

ـ إن هذا ليس خطراً كثيراً. يمكن تجنبهما في النهاية. ولكن حاول الظهور، مرّة واحدة فقط، غير متيقظ، على الخط الأزرق، عندما يكون «بوبي باون» فوق الجليد، فستستفيق في المستشفى.

ـ ما رأيك في «روبير روسّو»؟

ـ فائق المهارة، بالنسبة إلى لاعب في مثل طوله، غير أنه يلعب، في معظم الأحيان، جالساً على الجليد. هل أنت من أنصار فريق «كَنَديان»؟

ـ دون ريب. ألا يبدو هذا جلياً؟

يرد ضاحكاً:

ـ يبدو جلياً بما فيه الكفاية.

يفرغ كأسه من الجعة. اسأله:

ـ هل لعبت ضد «جان بيليڤو»؟

ـ نعم.

أجاب ماسحاً شفتيه بظاهر يده.

ـ كيف تجده؟

ـ إنه أذكى لاعب. فهو يستخدم عقله دائماً. يعتقد المشاهدون إن لاعبي الهوكي غير أذكياء كثيراً. أظنهم يحكمون على الأشياء بسرعة كبيرة. على كل حال، فإن لعب «بيليڤو» هو الذكاء بعينه.

تدخلت إيليز:

ـ أما أنت فحائز على دبلوم في العلوم السياسية.

يصحح:

ـ على «الليسانس» فقط.

قلتُ:

ـ مثل «ديك دوف».

ـ نعم.

ـ ثمة شاعر كيبيكي قال إن...

توقفتُ.

فسأل «بيل»:

ـ ماذا قال؟

كان كلاهما ينظر إليّ. فتابعت متلعثماً:

ـ إنه شاعر رائع. نال جائزة «فرانس ـ كيبيك». لا أريد أن أقول إنه رائع لأنه نال...

ـ ماذا قال؟ ـ رددت إيليز:

ـ قال إن طلعة «بيليڤو» الهجومية هي...

كنت متضايقاً.

ـ قال إن طَلْعة «بيليڤو» هي جميلة ورنّانة مثل قصيدة.

كانت إيليز جالسة، مقفلة السيماء، على متكأ النافذة النصف دائرية. كان ثمة وميض رأفة في عيني لاعب الهوكي. كان ينظر إليّ، كما نظر الناس إليّ، في الحال بعد العملية. انطويت على نفسي.

قال «بيل»:

ـ يجب أن أنصرف.

ردت إيليز:

ـ ليس الوقت متأخراً.

ـ اعتدت أن أنام باكراً.

نهض وانصرف. تبعته إيليز. سمعتهما يتحدثان، همساً، في الممر. ثم ما عدت أسمع شيئاً.

تتأخر إيليز عن العودة، ولكن أن تحيا في داخلك تنسى، أحياناً أن الوقت يمضي. قررت أن أتمدد. كنت شديد النحول. غالباً، لم أكن أفكّر في ذلك، ولكن كان يحدث أيضاً أن أعي ذلك على نحو حاد. كنت أسائل نفسي: هل كانت الحياة في الحركة أم أن الحركة هي في الحياة؟ كنت أسائل نفسي أيضاً هل في وسع مهرجٍ أن يكون جميلاً مثل شجرة؟

* * *

نسير، شارلي وأنا، باتجاه الـ «شاتو». يشقُّ عليّ أن أطابق بين خطوتي وخطوتها، لأنها تمشي مشية إنسان طليق. تطوف في ذهني أمور شتّى: إنها تضم إلى صدرها الكتاب الخاص بالطيور. الانصراف إلى القطب الداخلي للذات. ثمة طير في صدري. أرغب في التعرّف إليه وأخاف. فإمّا العيش مثل الآخرين وإمّا البحث عن مفاتيح الألغاز. يبدأ اسمها مثلما تبدأ كلمة «شا» «chat»[1]. تشبه طفولتي قصراً خَرِباً تعيش فيه القطط. تحلم القطط كثيراً. أمّا الطيور فلا تكاد تحلم. أرتاب في الكائنات العاجزة عن الحلم.

تقول شارلي فيما نمرّ تحت قناطر الـ «شاتو»:

ـ لدي غرفة هنا، ولكنني لا أرتادها أبداً...

قلت:

---

(1) قط.

ـ طبعاً. ولكن، ما جَدْوى الأحلام؟

ـ إنها تنعش المرء. يقول سيمون إن هذا مهم للغاية.

ـ لماذا؟

لا تجيب.

بمحاذاة الحديقة، في الجانب الآخر من الـ «شاتو» تقف أمام نصب تذكاري لـ «مونتكالم» و«وولف» وتجرّب حلّ رموز الكتابة اللاتينية.

Mortem. Virtus. Communem
Famam. Historia.
Manumentum. Posteritas. Dedit.

ثم تقول أخيراً:

ـ يجب أن يترجم سيمون لي هذا.

ـ هل يعرف اللاتينية؟

ـ طبعاً. عندما لا يريدني أن أفهم، يتحدث إليّ باللاتينية.

ـ لماذا؟

تلتفت نحوي وتجيب بهدوء:

ـ أنت مثل الأطفال، تكثر من السؤال دائماً.

ـ هذا صحيح.

ـ من الأفضل أن تبحث بذاتك.

ـ حاولتُ.

ـ ولم تنجح في ذلك.

ـ إنه لأمر مضحك. يمكن القول إن خبرتي تتناقص كل يوم. فيما تفكرين؟

- في سيمون.

فسألت على حين غرة:

- هل لديك أم؟

- كلا، ولكن كانت لدي أم مفرطة العناية بأولادها.

- أحب الأمهات من هذا النوع كثيراً. أين كان ذلك؟

- في الـ «كوت نور»[1]. أفضّل عدم الحديث عن هذا.

قبالة بيت السائحين، أشير لشارلي إلى نافذتي في الطابق الخامس. أوصيها بالمرور سريعاً ودون ضجة، أمام شقّة البوّاب نشداناً للسكينة.

تأملتْ «شارلي - الحوت الأزرق» النهر والسفن طويلاً، من خلال النافذة، ومالت لتلحظ، يساراً، جسر الجزيرة وجبال «شارل ڤوا» البعيدة، لأن الجو كان صحواً. كما ألقت نظرة على لوحتي: الشجرة وسط الضباب مع الشمس في الخلفية، وابتسمت بغموض. لم أطرح أسئلة.

بعد أن أكلتْ قليلاً، تمددت على الأريكة بصمت ثم أغمضت عينيها. تتنفس بقوة، كما كانت تقول. تبدو نائمة.

لم أطرح، من باب الاستقامة، أسئلة عليها منذ وجودها هنا، لا عن اللوحة وما يقول عنها الدكتور «غروندان»، ولا عن الحنان وما تكتبه العجوز ماري على أغطية طاولات مقهى «بوآد»، ولا حتى عن الطيور والأمل المُحال الذي تبعثه في نفسي.

إنها تتنفس تنفساً جدّ عميق.

أجلس قريباً منها، تفتح عينيها. أقول:

---

(1) الشمال. م.

ـ لم أرغب في أن أوقظك.

ـ هل تعرف؟

أجبت بالنفي. سائلاً نفسي عن السر الذي يجعل عينيها سوداوين هكذا.

ـ كان حلم يستولي عليّ غالباً. كنت أرى قطيعاً من الذئاب تنعطف عند زاوية الشارع متجهة نحو المنزل. كانت تقترب، أشداقها مفتوحة، ألسنتها مندلقة من بين الأنياب الحادة، وكنت، في لحظة بلوغها الباب، أستفيق صارخة.

ـ وكان والداك يأتيان إليك؟

ـ كان والدي يدخل الحجرة، داعياً أمي إلى العودة كي تنام، ثم يجلس على السرير ويتحدث إليّ بهدوء. بعدئذ كان يشعل أضواء المنزل ويجوب، معي، الغرف كلها دون أن ينسى النزول إلى القبو. ويأخذني من يدي، هو في مبذله وأنا في ثوب نومي الأزرق الطويل، ونسير حتى زاوية الشارع حيث عمود الكهرباء، ثم نرجع إلى البيت. كان يعيدني إلى غرفتي ويروي لي شيئاً كي أنام ثانية.

قلت:

ـ أحب ذكرياتك كثيراً. فلقد أحببت الذكريات دائماً.

ـ اقترب، إذن، قليلاً.

ـ انتظري...

أذهب طلباً لوسادة. أدسها تحت رأسها، وأتمدّد قريباً منها، إنها تتنفس تنفساً جدّ عميق.

ـ إنكِ «حوت أزرق» حقيقي.

- صحيح.

- أسائل نفسي...

تستفسر مغمضة العينين تقريباً:

- ماذا؟

ما أسائل نفسي عنه هو هل يسع المرء أن يصير صديقاً لفتاة جدّ يافعة تحب الطيور، ولكن هذا يصعب قوله. وبعد، ثمة سؤال أعجز عن الامتناع عن طرحه.

- لوحة الشجر، هل...؟

تجيب بتأمُّل:

- أفكِّر فيما عساه قد صار.

- الشجر؟

- لا، الرجل. منذ خمس سنوات وأنا أفكّر فيه دائماً.

- أي رجل؟

- الرجل الذي كان إلى جانبي. كنت أعبر إلى مدينة «ليڤي» في سفينة «لوي - جوليه». كان الوقت صيفاً. في منتصف النهر، تخطا الدرابزين فجأة، ورمى بنفسه في الماء.

- كيف كان؟

- كان مسناً، في ثياب سوداء وقبعة سوداء. أفكّر فيه دائماً. هل تفهم؟

- طبعاً.

- الإحساس بالمسؤولية، كما تعرف.

ـ أعرف. كفي، الآن، عن التفكير فيه.

ـ سأحاول، إذا عانقتني كما يعانقني سيمون.

ـ كيف؟

* * *

كان اليوم يوم الأحد.

وقد خرجت إيليز مع «بيل» لحضور سباق الزوارق. بقيت في البيت كي أكتب. كان الـ «تيراس» الذي يُشاهد من نافذتي، يعج بأناس مزركشين يبرقشون الثلج بجذل، ويسيرون متخاصرين ويرقصون ويشربون لتدفئة أبدانهم، وينفخون، من وقت لآخر، في أبواق مطاطية ملونة. كانت أزواج من المتزلجين ترقص، قريباً من الـ «شاتو»، على إيقاع أحد «فالسات» شتراوس في ميدان تزلج صغير، تحوطه تماثيل نصف شفّافة. كانت عربات بدائية بركّابها المتمسكين، بفرح، بعضهم ببعض، المائلين إلى الأمام، تنحدر، في منتصف «التيراس»، رتلاً ثلاثياً، على ممرات الحلبة الزلقة السريعة. كانت مركبتا العبور الشتويتان، غاصتين بالمشاهدين الرسميين، تقفان جامدتين في منتصف جليد النهر، وتحوم حوامات من فوقهما.

كنت سعيداً بخروج «إيليز» و«بيل». فقد كانت إيليز بحاجة إلى قليل من التسلية. ثم لو أنهما مكثا في البيت لوجب عليّ أن أكتب في غرفة «بيل»: إذ كان يعيرني إياها لأعمل في جو هادئ. إنه يكاد يزورنا كل يوم. لم يكن يطيب لي ذلك كثيراً: كان يصعب عليّ أن أعتاد، فالنافذة لا تطل على النهر، وهمسهما يُسمع من خلال القاطع.

لم يكن أمامي، منذ بعض الوقت، إلا أن أغلق النافذة، وأجلس إلى

مكتبي وأشعل سيجارة، وأتناول قلمي فأجد نفسي، دون جهد، في وسط عالمي الخيالي.

كان عالمي قد بدأ يكبر، على الرغم من أن مجموع المشهد يفوتني دائماً. على قمة الجرف الشديد الانحدار، كان قد أقيم منزل ريفي كبير حيث تعيش طائفة دينية. كان يمكن، بعد ظهر الأيام المشمسة (الوقت منتصف الصيف في قصتي)، مشاهدة الراهبات ينزلن الدرب، رتلاً طويلاً أبيض، ويذهبن للجلوس فوق الصخور العالية الزاحفة نحو الماء، كانت ضفة النهر، المتموج في سلسلة خلجان عميقة بعض الشيء، مؤلفة من رمل وحصى. كان الرمل يصير، تحت الأقدام، رقيقاً وناعماً جداً في أعماق الخلجان، وقُفَف صيد كبيرة منصوبة هنا وهناك، مقسمة إلى فواصل عديدة، متضررة بجليد الشتاء وينزل الصيادون إلى الشاطئ لإصلاحها، فيما بعد، عند نهاية شهر تموز، يضعونها على منحسرات الشاطئ لصيد سمك الجِرِّي حتى قدوم الشتاء. عندما يكون الجو شديد الحر والمدّ عالياً يأتي شباب القرية للسباحة. كما يمكن أن تصادف هناك القطط الباحثة عن الطعام. كان لدي إحساس بإعادة الإنشاء، قطعةً قطعةً. هَمّ هائل.

كنت أشعر، كلما عدت إلى هذا العالم الخيالي، بالراحة أكثر من السابق. كان يعني، بالنسبة إليّ، مأوىً وملاذاً. كنت، خلال بعض الأيام، لا أكتب أبداً، لمتعة الإحساس بالراحة وعدم فعل أي شيء، جالساً على الصخرة الكبيرة الزاحفة نحو النهر أكثر، حيث تحوم النوارس في الجوار، ضائعاً في عالم، الشمس فيه مشرقة والريح نسمة عليلة والجو دفء شامل وساكن وباعث على السكينة.

إن ما كان يقلقني قليلاً ويعيدني أخيراً إلى الواقع، هو التفكير،

المتكرر أكثر فأكثر، في إمكانية وجود علاقة سرية ما بين الرقّة والموت.

كان يمكن، على الرغم من النافذة المغلقة، سماع ضوضاء الناس المبهمة وهدير الحوامات، عندما تحلّق فوق المنزل. ألصقت أنفي بالنافذة: كان مئات الفضوليين ينحنون فوق سور «التيراس» أو يقفون جماعات على أرصفة الشاطئ حتى «باسان لويز». كان الجليد ينجرف بسرعة، ولا تترك أطوافه الصغيرة المشتتة سوى ممر ماء سالك في اتجاه «كيبيك». كان ثمة في «ليڤي» حشد صاخب من المشاهدين يسوّد الرصيف الطويل الذي كان على الزوارق أن تمسه قبل القيام بنصف دورة لعبور النهر. لم يكن السباق قد بدأ. تعرفت إلى «إيليز» و«بيل» اللذين كانا مستندين إلى السياج الأخضر الممتد على طول ممرات الحلبة الزلقة، يلتفتان معاً عند مرور العربات البدائية. كان لاعب الهوكي يرتدي معطفي من فرو القطط وحزامي الصوفي الكيبيكي التقليدي. رفع وعاءه البلاستيكي الأبيض واضعاً فوهة الوعاء على فمه. كان الوعاء مليئاً بـ «دراي جن» وعصير البرتقال. مرره، بعدئذ، إلى إيليز التي شربت، بدورها، جرعة كبيرة. كانا، من حين لآخر، يرقصان رقصاً مضحكاً. كان الجو يبدو شديد البرد.

عدت إلى مشهدي.

الصيف. الرقة.

انتفضت.

طرقات على الباب.

كانت الشقة معتمة.

طرقات أخرى على الباب، مضاعفة.

نهضت، مستعيداً توازني مع قليل من الصعوبة، أشعلت مصباحاً

وأدرت رأسي كي لا يُخطف بصري. ألقيت نظرة على الساعة الجدارية القديمة: كانت تشير إلى ما بعد منتصف الليل. لاشك أنني نمت خلف مكتبي. كانت رقبتي تؤلمني. أشعلت مصباحاً آخر ثم فتحت الباب.

كان لاعب الهوكي واقفاً هنا، مرتدياً معطفي من الفرو وحزامي الصوفي والقلنسوة الحمراء، وجزمة الطيّار، حاملاً وعاءه الأبيض. كان قد طرق الباب بالوعاء. كان، فاغر الفم حائر النظرة، يتمايل بخفة، من الأمام إلى الوراء: كان ثملاً حتى الثمالة.

قلت بهدوء:

ـ أنت ثمل.

خضّ وعاءه البلاستيكي تحت أنفي وهزّ رأسه بالنفي:

ـ غير ثمل!

تمسّك بقبضة الباب وثغثغ:

ـ أبداً! أبداً! لاعب الهوكي... إطلاقاً، سكران... ممنوع! «بيل» الضخم... غير سكران ولكنه تعبان لأن...

صوّب، برعونة، وعاءه من فوق كتفه باتجاه السلّم، وهَجا:

ـ إيـ ـ غليـ ـ ز.

ـ ماذا.

ـ إيغليز، في أسفل السلّم.

ـ اسمها إيليز.

ـ وهو كذلك. صديقتي إيليز. جررتها حتى أسفل السلم. تعبان بسبب ذراعي. هل تفهم؟

كان صوته متوسّلاً. فسألته:

- أهي مريضة؟

- ليست مريضة. تعبانة.

كانت عيناه تحاولان، عبثاً، التحدّيق في عيني. كانت حبيبات العرق تقطر من جبينه. حاول أن يضع يده على كتفي ولكنه أخطأ فتحركت يده في الفراغ.

قال بعناء:

- بحاجة إلى مساعدة.

- لا بأس، سأحاول مساعدتك. بعدئذ، يذهب الجميع إلى النوم.

شرع يضحك واستدار، مترنحاً، باتجاه السلّم. مدّ إحدى قدميه، باحتراس، نحو الدرجة الأولى قائلاً:

- شكراً جزيلاً. الجميع متعَبون كثيراً. سينام الجميع.

- انتظر.

تسمّر في وضعية مضحكة، إحدى يديه على درابزين السلّم وقدمه معلقة في الهواء.

قلتُ مشيراً إلى بزّته:

- لابد من خلعها.

فردّد:

- لابد من خلعها.

فككت حزامه الصوفي، وتمكّنت، بعد جهد استغرق عدّة دقائق، من أن أخلع عنه معطف الفرو الثقيل ثم جزمة الطيّار. لم يقاوم، ولكنه

رفض، بعناد، التخلي عن قلنسوته الحمراء ووعائه البلاستيكي. نزلت على السلّم أمامه، ملتفتاً، عند كل ردهة، إلى الوراء لمراقبته وتشجيعه. كان، الوعاء تحت ذراعه المجروحة، يمسك الدرابزين بيده السليمة. يرفع ساقه يستطلع الأرض طويلاً، ثم يضع قدمه، وكأن السلّم مليء بالألغام.

كانت إيليز تستريح على الدرجة الأخيرة.

كانت ممتدة بالعرض على السلّم، رأسها مائل جانباً ومستند إلى الجدار، عيناها مغمضتان، وعلى وجهها ابتسامة تمنحها هيئة طفلة صغيرة. كانت البوابة تقف أمامها في قميص نوم طويل أبيض، مشبوكة الذراعين، مغطية رأسها بملاقط شعرها الأبدية. كانت سيماؤها تنم عن استهجان كامل.

قلتُ بصوت خفيض:

ـ مساء الخير، سيدتي.

لم تعرني أدنى اهتمام. كانت تراقب لاعب الهوكي الذي كان، بعد أن بلغ، دون عائق، الدرجات الأخيرة، مهتماً بالقيام بخطوة مفرطة الطول، لتجاوز العقبة الكبيرة، التي يمثلها بالنسبة إليه، جسد إيليز. نجح الصنيع. حيّا البوابة بانحناء زائد، رافعاً قلنسوته، علامة الاحترام، وبدأ يروي لها، بكلام غير مفهوم، قصة طويلة وغامضة، ختمها أخيراً: إن الجميع متعبون ويرغبون في النوم. ثم انتهى به الأمر، إزاء الاحتقار الكلي الذي كان يسود وجه السيدة المسنّة العابس، بان سكت تماماً. وراح يعاينها فاغر الفم مشدوهاً، بتلك النظرة الحائرة لأناس يتأملون تمثالاً شديد الغرابة. قبل أن يلمس المرأة للتأكّد مما إذا كانت حقيقية، سحبته من ذراعه وقرّبته من إيليز، التي فتحت عينيها قبل قليل. سألتها:

ـ هل الحال أفضل؟

لم تكن تستطيع أن تثبت نظرها عليّ. طبطبت على خدها فأصدرت آهة خفيفة. أمسك لاعب الهوكي بيدي، وأبعدني قليلاً معترضاً:

ـ إنك تؤلمها.

وأضاف في الحال:

ـ يعرف «بيل» الضخم ما ينبغي فعله. لحظةً.

جثا بحذر، وانحنى ثم قبّلها برقّة على وجنتها. نظرتْ إليه، وابتسمت له فبدأتُ أفكر في قصة «الحسناء النائمة». كنت أعرف أنه أمر سخيف. كانت نظرة البوابة تحرق قذالي. ولكن هوذا ما كنت أفكر فيه، أو في فيلم «والت ديزني» على الأصح، المقتبس من هذه القصة.

سألتْ إيليز:

ـ أنت هنا؟

ردّ «بيل»:

ـ طبعاً.

كنتُ سأجيب هكذا بالضبط. كان «بيل»، الوعاء تحت إبطه، والقلنسوة مائلة والعينان مُخْضَلّتان، جاثياً يبتسم بسذاجة.

قالت إيليز بصوت منفعل خفيض:

ـ هل تركتني؟

أشار لاعب الهوكي، فاغراً فاه، بالنفي. استمر يهزّ رأسه بُرهة ثم قال متلجلجاً:

ـ سيذهب الجميع إلى النوم.

بعدئذ مال عليها وقال بصوت قوي قليلاً:

ـ وجدتُ معاوناً.

كانت قد أغمضت عينيها ثانية قبل قليل بالضبط. فهزّها من كتفيها متابعاً:

ـ إن «نويل» هنا.

كانت تبدو نائمة، رأسها، كما منذ قليل، مستند إلى الجدار ومائل جانباً.

كانت الوجنة الظاهرة نديّة. قال «بيل».

ـ إنها لم ترك. لحظةً.

وأراد ثانية أن يميل عليها. أوقفته بوضع يدي على كتفه قائلاً:

ـ لا توقظها.

ـ صحيح؟

ـ نعم!

ـ إنها مرهقة.

ـ ستحملها، وأنا سأرفع ساقيها.

بيّنت له، بشيء من الخشونة، كيف نعمل: كنا نبدو أننا نقسّم إيليز إلى جزئين. تناولت الساقين وثبتهما تحت ذراعي المثنيتين. مرّر لاعب الهوكي يديه تحت إبطي إيليز محاولاً رفعها. قال:

ـ إنني مُنهك. سأشرب جرعة.

كان يحاول أن يتناول ثانية الوعاء الذي وضعه تحت حزام سرواله. استغرق الأمر مني دقائق عديدة، حتى ردعته عن ذلك. أدركت، فجأة،

أنه لا يستطيع حمل إيليز بسبب زنده المكسور. شرحت له الموقف.فاقترح وهو يحك زنده:

ـ سآخذ مكانك.

ـ مستحيل.

كانت فكرة تبادل الأمكنة تزيدني كرباً. يبدو أنه لا يدرك عجزي عن بذل جهد شاق. بيّنت له كيف يحملها: أن ينحني ويمرر يديه من تحت ذراعي إيليز ثم يسند الثقل إلى ساعديه. كرّر حركاتي متمتماً لنفسه بكلمات التشجيع. استطاع، دون كبير عناء، أن يرفعها، فتناولت، في الحال، الساقين الزاحفتين على ارتفاع درجتين. جزمةٌ مثبّتة جيداً تحت كل إبط، أدرت رأسي لأعطي إشارة الإنطلاق: يدا لاعب الهوكي تضغطان بشدّة على صدر إيليز التي وضعت رأسها في تجويف كتفه. على وجهه المحمر قليلاً، بانت ابتسامة عريضة. قال بسرور:

ـ إنني قادر على رفعها حتى إلى السماء!

انطلقنا، تحت نظر البوابة الغاضب، وسمعت في الحال تقريباً، صوت إيليز يهمس:

ـ أتهدهدني؟

فأجاب «بيل»:

ـ طبعاً.

كانت توشوش بكلمات غير مفهومة، ويجيبها «بيل» بصوت هامس. تبدو أحياناً، كأنها تئن.

كنت أشعر بساقي تضعفان، وأخشى أن لا أتحمل التعب حتى الطابق الخامس. ثم سمعت الصوت النائح مرّة أخرى:

ـ ألا تزال تهددني؟

ـ نعم.

ـ غنِّ لي أغنية.

ـ أية أغنية؟

ـ أغنية. أغنية الكرنفال.

شرع يغني اللازمة بصوت شبه أبح يقطّعه اللهاث، ولكنه لايشذ قط. تدندن إيليز أيضاً. أغني في نفسي، دون قصد، معهما. توقّف لاعب الهوكي في الطابق الثالث وأفرغ الـ «جن دراي» بجرعة واحدة. يستحيل أن تجعله يغير رأيه.

أضجعنا إيليز، بعد بلوغنا الطابق الخامس، على الأريكة. كانت نائمة. رجعت كي أحضر معطف الفرو والحزام الصوفي وجزمة الطيار من الردهة. أعدت إغلاق الباب وارتميت متهالكاً على الكرسي. عاد لاعب الهوكي، الذي صحا من السُكر قليلاً ولكن لايزال يترنح، من المطبخ يحمل زجاجة من الجعة. لا يهدأ قلبي. تناولت من جيبي عبوة الطوارئ الصغيرة، وابتلعت حبّة بعد لحظات، هدأ تنفسي واسترخت أعضائي وثقل جفني.

سمعت ما يشبه التّأوه.

فتحت عيني.

لمحت، خلل غشاوة، ظَهْرَ لاعب الهوكي الذي كان يبدو منحنياً فوق إيليز. لم أكن أرى ما يفعل ولكن أسمع صوت إيليز وهي تئن.

سعلتُ. استدار «بيل» بنشاط، وسأل:

ـ ألست نائماً؟

ـ كنت نائماً.

ـ إنني بحاجة إلى مساعدة.

كان يبدو أن سُكْره قد خفّ كثيراً. نهضت. كانت ساقاي مثل الرصاص.

سألت:

ـ الحال سيئة؟

ـ نعم.

ـ أهي مريضة؟

ـ إنها تعاني من الحرّ كثيراً. إنها تختنق.

دنوت من الأريكة. قال:

ـ ضع يدك هنا.

ووضع يده على جبين إيليز، ثم سحبها مبللةً بالعرق. فكّ أزرار المعطف «السويدي»[1] ثم جعلني أجثو على طرف الأريكة قائلاً:

ـ خذها بين ذراعيك.

ساعدني على رفع كتفي إيليز، فشددتها إلى صدري.

ـ امسكها جيداً.

وإذ سحب الكُمين بالتالي، جعل المعطف ينسدل، ثم بهزّة قوية، خلعه تماماً. فقدتُ توازني تحت تأثير الصدمة. وجدت نفسي ممدّداً مع إيليز. قال:

---

(1) جلد مقلوب، مدبوغ. م.

- هل أنت أيضاً تعب؟

- إنني تعب، وناعِس كثيراً. كم الساعة الآن؟

نظرتُ إلى الساعة الجدارية، ولكن الغشاوة كانت لاتزال كثيفة والعقارب ترقص أمام عيني.

قال لاعب الهوكي:

- في وسعك أن تنام.

- كلا، ينبغي أن أساعدك.

- أعتقد أنه لا حاجة.

- كلا.

ركعتُ على الأريكة. وبدأت أخلع صدرية إيليز.

فقال بوهن:

- هذا ليس ضرورياً.

- إنها تعاني من الحرّ كثيراً.

خلعتُ صدريتها من فوق رأسها. ثم طلبت من «بيل» مساعدتي على إنهاء العمل فأعانني حتى النهاية، متمتماً بكلمات كنت أعجز عن فهمها.

كانتِ أصابعي تتنّمل. كنت أستعجل خائفاً من أن تخور قواي قبل النهاية. توقف «بيل» فجأة، في خاتمة المطاف، عن التحدّث. بَسَطنا على إيليز لحافاً قطنياً خفيفاً. انتظم تنفسها وتوقفت عن التأوّه. وبدت مستغرقة في النوم.

قلت للاعب الهوكي:

ـ شكراً جزيلاً.

لم يردّ.

أضفت:

ـ ما كان في وسعي أن أفعل هذا بمفردي.

قال بصوت جدّ خفيض:

ـ تبدو مرهقاً للغاية.

ـ هذا صحيح.

جلست على مُتّكأ النافذة النصف دائرية، ومددت ساقي. دخل «بيل» غرفتي وعاد يحمل وسادتين وضع إحداهما تحت رأس إيليز، ودسّ الثانية خلف ظهري. مددت جسمي أكثر قليلاً. وشعرت براحة كبيرة. سأل «بيل»:

ـ هل حالك على ما يرام؟

ـ على أحسن ما يرام. صدقاً. أشكرك.

ـ هذا أفضل.

ـ خذ زجاجة جعة أخرى، أتعرف من أين.

ـ طيب. ولكن ستكون الأخيرة.

ذهب ليحضر زجاجة جعة «مولسون» من الثلاجة، وعاد يجلس على الكرسي الذي تركته. كنت أشعر بتعب شديد وارتياح كبير في آن واحد، ولا أتمكن من التمييز بينهما. أفكر كذلك في الدكتور «غروندان». سألني «بيل»:

ـ فيم تفكر؟

- في الهوكي.

قلت ذلك لأُسعده، فردّ:

- لا أصدقك.

- معذرة. كنت، في الواقع، أفكر في الدكتور «غروندان».

- أنت محظوظ بمعرفته.

- هذا صحيح.

- أي شخص هو؟

- جدّ خيّر وإنساني للغاية.

سكب نصف محتوى زجاجة الجعة في كأسه وقال:

- كذلك، أنت أيضاً.

كنت أحب الهوكي، بجنون، منذ صغري. وأبي أيضاً كان يحبه. كانت إيليز تتنفس عميقاً. كان جسمي يتخدر وينغلق ثانية عليّ وعلى ذكرياتي، كانغلاق عش على طير جريح. كانت أضواء مدينة «ليڤي» وسط الجليد المنجرف، تستسلم للهدْهدة، في ماء النهر.

قال لاعب الهوكي:

- ستنام؟

- لا، طبعاً.

- سأسكت.

- تكلّم إن شئت.

- إنك بحاجة إلى النوم.

ـ أنت شخصية كريمة.

ـ لا تقل هذا.

ـ لماذا؟ فقد اعتنيت، مثلي بإيليز، اعتناءً جيداً.

ـ لا، أبداً.

ـ ما رأيك فيها؟

ـ إذ سمحت لي، أقول إنها فائقة الجمال.

ـ قصدتُ: أخلاقياً؟

ـ إنها خالية من العيوب.

ـ ألا تجدها... أماً مفرطة العناية بأولادها، أحياناً؟

ـ كلا. ربما قليلاً... فتاة صغيرة. معذرة.

ـ أمر طريف.

ظل ساكتاً بضع لحظات. ثم استأنف حديثه:

ـ يصعب عليّ فهمك أحياناً، فأنا لا أستوعب حديثك في الحال. وما صادفت أحداً مثلك في حياتي أبداً.

ـ صحيح؟

ـ إنك لا تغضب قط.

وشرب جرعة كبيرة من الجعة ثم سأل:

ـ هل كنت كذلك دائماً؟

فأجبتُ حابساً التثاؤب:

ـ لا، طبعاً.

ـ منذ متى إذن؟

ـ أعتقد أنني سأنام. الآن.

ـ بودي أن أعرف كيف تشعر بنفسك مع...

حاولت إبعاد الضبابة من رأسي.

ـ مع زوجتي؟

ـ لا، لا. مع قلب الفتاة في صدرك. معذرة.

ـ ليس الأمر سهلاً.

ـ ألست في حال جيدة؟

سكب لنفسه النصف الثاني من الزجاجة. كان يتحدث بصوت جدّ عال. خفت أن يسكر ثانية.

قال منتعشاً:

ـ اسمع، إنني أجدك في أحسن حال. وأرغب، أيضاً، في امتلاك قلب فتاة!

كدت أضحك. فقد كانت رؤيته مُسلّية بما فيه الكفاية. ولكنني خفت أن تفيق إيليز.

قال لاعب الهوكي:

ـ معذرة. أعتقد أنني أفرطت في الشرب. صدقاً، أفكر في ذلك.

كررت:

ـ لابأس. فأنت شخصية كريمة.

ـ لا، لا تقل هذا. فأنا لا أحب ذلك.

أفرغ كأسه بتمهل ثم اقترح:

ـ هل ترغب في أن نتحدث عن الهوكي؟

لم أردّ.

ـ في وسعنا، إن شئت، التحدث عن «جان بيليڤو».

لم أقل شيئاً. ألقيت نظرة أخيرة من خلال النافذة: كان وجه «بونوم كرنفال»[1] الممتلئ والمتهلل، يتجلى متألقاً في مركب العبور الشتوي الذي غادر «كيبيك» تواً. ما كنت أعرف بعدُ كم الساعة، ولكن الليل كان في هزيعه الأخير. سيكون الغد، عشية ثلاثاء المَرْفَع[2]، ويعوم الكرنفال مثل سفينة.

* * *

ترفع «الحوت الأزرق» جسمها. أدسّ إحدى ذراعي ما بين عنقها وأذنها، والثانية حول خصرها. تعانقني قائلة:

ـ شدّ بعدُ قليلاً.

ـ أشدها إلى حضني. تتنفس تنفساً جدّ قوي، قرب أذني تماماً. تقول:

ـ أحس، الآن، بالراحة.

ـ إنك تتنفسين تنفساً قوياً للغاية. يا «شارلي ـ الحوت الأزرق».

ـ أنت أيضاً تتنفس قوياً.

---

(1) شخصية رئيسية في «كرنفال» كيبيك تمثل رجل الثلج مرتدياً القبعة والحزام التقليديين. م.

(2) المَرْفَع والمَرافِع عند المسيحيين: أيام معلومة تتقدّم الصوم فيها تُرفَع بعض المأكولات. المنجد.

ـ إنه بسبب قلبي.

ـ أمّا أنا، فبسبب تجربتي.

ـ أذكر. فلديك الكثير من التجارب.

ـ لم أقل ذلك. قلت: تجربة كبيرة. أمران مختلفان.

ـ مفهوم.

ـ إن الحيتان، كما تعلم، ودودة للغاية.

ـ لم أعرف ذلك.

ـ هل تدري ماذا يحدث، عندما يصطاد الصيادون حوتاً ويجرونه خلف المركب؟

ـ كلا.

تتعقب الحيتان الأخرى المركب، مسندة رأسها إلى بطن الحوت الجريح وترافقه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أحكّ، مغمض العينين، وجنتها بأنفي قريباً من أذنها حيث البشرة ناعمة وكأنها مُعطّرة قليلاً. تسألني:

ـ أتحس أنت أيضاً بالراحة؟

ـ نعم.

ـ ألا أهرس ذراعك؟

ـ كلا. أنا في أحسن حال.

ـ الآن، في وسعي أن أقول لك لماذا أتنفس هكذا عميقاً.

ـ لا أطلب منك شيئاً.

ـ ولكنك تعانقني جيداً مثل سيمون. لذا تسهل عليّ رواية ذلك:

إنها قصة مع رجل.

ـ أعرف.

ـ ذات ليلة، عندما كنت صغيرة، دخل حجرتي. كان أحد أعمامي حاول أن...

توقفتْ لحظة، ثم تابعت بشيء من الحزن:

ـ كنت أعتقد، أنه يملك الحق في فعل ذلك، لأنه عمي. هل تفهم؟

ـ أفهم، ولا تقولي شيئاً أكثر.

ـ أتنفس الآن بقوة، عندما أكون مستلقية.

ـ لا تقولي شيئاً أكثر.

فقالت أيضاً لتكمّل تفسيرها:

ـ لذلك، يسميني «سيمون» «الحوت الأزرق».

أقبل جيدها، متجنباً إصدار ضجة بشفتي. بعدئذ تسألني:

ـ وأنت، لماذا تتنفس بقوة، أيضاً؟

ـ إنه لأمر جد معقد. كما لو أني أبلغ نهاية أحد الأسفار... وكأني سأكتشف شيئاً بالغ القِدم و...

ـ شيئاً يصعب عليك تحمله؟

ـ نعم. وأسائل نفسي أيضاً. إن كانت ثمة علاقة ما بين الرقة والموت.

ـ الرّقة، إنما هي أنت.

أقبّلها، ثانية دون صوت، من جيدها. فتقول:

ـ إن العلاقة بين الأشياء مسألة صعبة. ينبغي أن نسأل سيمون عن هذا. فهو أيضاً بالغ الرقة.

ـ أين يسكن صديقك سيمون؟

ـ في «سان ـ نيقولا»، إنه مكان بديع.

ـ لم أزره قط.

ـ أتدري، ما أرغب فيه؟

ـ كلا.

ـ إن أشد ما أرغب فيه، هو أن يكون والدايّ ووالداك، الأربعة جميعاً، واقفين يتأملوننا، في فتحة الباب، وأن تدفع أمك مثلاً، والدي بكوعها.

ـ الآن، وكأنهم هنا.

تقول إنني أتحدث مثل الحوذي، وينفخ نَفَسها نفحات من دفء في رقبتي. لاأزال أشدّها إلى صدري، ولكنني مررت يدي فوق ظهرها من تحت كنزتها الفضفاضة الزرقاء. لا ترتدي شيئاً تحت الكنزة. أحس، تحت أصابعي، بأن الأضلع والفقرات جدّ قريبة من ظاهر جلدها، والبشرة بالغة النعومة في كل مكان تحت راحتي. الكنزة جدّ واسعة حقاً. تتنبأ قائلة:

ـ إنها تعوم حولي، وأحس بنفسي في أمان تحت غطاء. هل تفهم؟

ـ طبعاً.

ـ أتعرف فيم أفكّر؟

ـ كلا.

ـ أفكر في عمتي.

ـ ....

ـ عمتي الراهبة. سوف تخرج من الدَيْر، خروجاً نهائياً، في السبت القادم. أمضت حياتها كلها دون أن تعرف أن في وسع المرء أن يكون في حال جيدة هكذا.

ـ ربما ستمضي ما تبقى من حياتها راغبة في أن تكون في «حال جيدة هكذا».

ـ آمل. هذا لطف منك.

تسكت. تبدو دائمة التفكير في شيء محدّد. تقول:

ـ توجد راهبة في «سان ـ نيقولا».

أردّ مشغول البال قليلاً:

ـ طبعاً.

ـ إنها فائقة الجمال. اسمها الأخت «كلير»[1].

ـ ماذا؟

ـ هل تعرفها؟

ـ ليس تماماً، ولكن...

ـ إنه اسم جميل. ألا يذكرك بنبع؟

ـ طبعاً.

ـ إنك تردد «طبعاً» على الدوام. وصوتك حزين، هل حالك جيدة؟

---

(1) لكلمة «كلير» Claire. أكثر من معنى. نيّر. مضيء، صاف، فاتح جلي. الخ.

ـ حالي جيدة.

هذا صحيح وغير صحيح. فأنا في حال جيدة، بسبب هذا الدفء المتصاعد من الطفولة مثل لهيب موقد، وقلق بسبب هذه القصة المنغِّصة المتعلقة بالموت والرّقة، وبسبب الانحسار وكذلك بسبب هذه «الأخت كلير». لم يُتح لي أن أدرك، إنما أن أسير فقط في الظلام ترشدني يدٌ فتية و...

تقول شارلي:

ـ إنها مثلك، ولكنها مرحة دائماً، وأنت لا.

ـ أجل، ولا أعرف السبب.

ـ مع ذلك، فأنت لست مُخْمداً في داخلك. إنني أعرف أناساً من هذا النوع.

* * *

شعرت بيد باردة على كتفي.

ـ ماذا؟

كنت محبوساً، مع ما يقارب مائة طير غريب، في قفص في حديقة الحيوانات بمدينة «أورسينفيل»، وينظر الدكتور «غروندان» إليّ من الطرف الآخر للسياج الحديدي. كنت أسمع زمجرة خافتة.

أفقت منتفضاً. سألت:

ـ ماذا يحدث؟

ـ لا شيء. هذه أنا.

كانت إيليز جالسة على طرف السرير. سألت مُخدّراً بالنعاس بعد:

ـ ما هذا الصوت؟

ـ إنه صوت المطر. كنت تحلم.

ـ أيهطل بكثرة؟

ـ مدراراً.

كان الوقت ربيعاً إذن. الغيث الأول في الربيع. سيجعل العشب يخضر من جديد في حديقة «غوفيرنور» وعلى المنحدر قريباً من الـ «تيراس». بالأمس، كان عيد الفصح. كان الجو رائعاً والهواء عليلاً، قمنا، نحن الثلاثة، بنزهة طويلة.

ـ كم الساعة؟

ـ الساعة السابعة.

ـ سأنام بعدُ قليلاً. إنني أشعر بالبرد.

استلقيت ثانية وعدت إلى تغطية رأسي باللحاف، ثم فجأة، جلست من جديد.

ـ ماذا تفعلين بمشمعي الواقي من المطر؟

ـ اسمع...

ـ سأشتري لك واحداً مثله تماماً، ذا طيات عريضة وعروات على الكتفين ومشابك عند المعصمين. من مخزن «ج.م. كليمان» شارع «سان ـ جان». إنه المكان الوحيد الذي في وسعك شراء «واقيات مطر» مستوردة من إنكلترا. والآن، سأنام.

وطمرت رأسي ثانية تحت اللحاف.

ـ اسمعني قليلاً.

ـ ماذا؟

فردّت إيليز بهدوء:

ـ سأنصرف.

ـ اليوم عطلة. يوم الاثنين بعد عيد الفصح.

تواصل:

ـ اسمع يا «نويل»...

ـ ماذا؟

لم أكن، في الواقع، مستاءً من أمر إيقاظي: كان الوقت باكراً، وفي وسعي استئناف النوم. كان يحلو التفكير. ويبدو صوت إيليز، المسموع عبر اللحاف، بعيداً، شبه حزين. قالت:

ـ أنت لا تفهم.

ـ لن تخرجي في أثناء هذا المطر!

كنت أسائل نفسي: أكانت هي أيضاً تجد صوتي متغيراً؟ قلت:

ـ خذي مِظلة إذن، واطلبي من «بيل» مرافقتك.

ـ أنت لا تفهم.

ـ للمرّة الثانية، تكررين هذا القول.

التويتُ، ركبتاي في ذقني، مطأطئ الرأس، يداي بين فخذيّ. كنت، منذ العملية، أنام منطوياً مثل جنين. أفْضل الحالمين، هو القطط. وُجدت قطط في طفولتي دائماً. كان ذلك في الريف. كان «جيمي» يستيقظ مع شروق الشمس ويسير على الشاطئ ويجلس على صخرة كبيرة. كان المدّ عالياً، وبقايا ضباب تتبدّد فوق النهر.

ـ هل أنت نائم؟

رفعتْ اللحاف مكررة:

ـ هل أنت نائم؟

فتحت عينيّ سائلاً:

ـ ماذا تفعلين؟

أجابت بأناة:

ـ كنت تنام.

ـ كنت فوق الصخرة.

ـ الصخرة؟

ـ ليس في وسعك أن تفهمي. فهذه قصتي. سأشرح لك، إن شئت.

تعاين ساعتها قائلة:

ـ في مرّة أخرى، من فضلك.

ـ كما تشائين. لماذا توقظينني؟

ـ يجب أن أتحدث إليك.

ـ كان ينبغي أن ندع الناس يحلمون. ولكن في وسعك التحدث إليّ الآن. فلن أنام بعد.

ـ كلا. انهض.

ـ لماذا؟

ـ أرجوك، انهض دون أن تطرح أسئلة.

ـ كلا. فأنا هكذا في حال جيدة. إلا إذا قلت لي السبب.

ـ اسمع، هناك أشياء لا تُقال لرجل مستلقٍ، عارٍ تماماً، في السرير.

أخذتني الرعشة، ففكرت في «الشيخ والبحر»[1]: كان الصياد العجوز، إذ يفيق في الصباح يقول لنفسه، إن الرعشات ستدفئه. لم أكن أعرف أن في وسع الرعشة أن تدفيء أحداً. قلت:

ـ ناوليني، إذن، مبذل اليوم.

ـ كلا.

كنت جالساً في السرير مغطياً ساقي باللحاف، أنظر إليها بشيء من الدهشة:

ـ قلتِ، كلا؟

ـ اسمع، ارتد ثيابك كاملةً.

ـ لماذا تبدئين جميع جملك بـ «اسمع»؟

نظرت إليّ بهدوء، دون جواب. تناولتْ ثيابي من فوق الكرسي ووضعتها على قائمة السرير. ارتديت، جالساً، صدريتي الرمادية، ونظارتي التي كانت على المنضدة الصغيرة قرب السرير. كان ملمس الصوف القديم على بشرتي، يبعث الدفء ثانية في قلبي.

ـ اعذريني على نفاد صبري. ففي وسعك أن تبدئي جملك كما تشائين. إنني أسحب ما قلته.

أزحت اللحاف. استدارت إيليز علانية.

ـ لماذا تولين لي ظهرك؟

ـ لأنك سوف ترتدي سروالك.

---

(1) رواية أرنست همنغواي. م.

- أولاً، هذا ليس سروالاً، إنما هو «جينز»

بحركة مديدة، كحالة الإبطاء في السينما، رفعت ساقيّ في الهواء، ولبست «الجينز» وإذ درت على مؤخرتي، وجدت نفسي واقفاً قرب السرير، أحزم الحزام الجلدي. تطلّب مني ذلك تمريناً طويلاً. كانت إيليز تستمتع، عادة، بتأمّل هذا الصنيع. لقد احتفظت بشتّى أنواع العادات القديمة. كنت أسائل نفسي، إن كان الناس جميعاً هكذا، وكان سواء عليّ تماماً عرفت ذلك أم لا. كنت لا أزال أشعر بنفاد الصبر.

طبطبت على كتف إيليز:

- هل لديك اعتراض إن بقيتُ حافياً؟

نظرت إلى قدمي وأشارت إلى أنها غير معارضة.

- ستحدثين إليّ الآن؟

قالت مشيرة إلى الحمام:

- في وسعك المرور من هناك.

نظرتْ، مرّة أخرى، في ساعتها.

- ما بك تنظرين في الساعة كل دقيقة؟

- سأنتظرك في البهو.

- هلّا خلّعت مشمّعي؟

هزّت كتفيها وتوجهت صوب البهو. دخلتُ إلى الحمام. وإذ تبولت طويلاً بدأت أفكر في عبارة: «تنظرين في الساعة كل دقيقة». ثمة خلل في الجملة. سحبت السيفون.

صعدت الميزان ونظرت إلى ما بين قدمي: مائة وعشر ليبرات[1]. أربعة أعمدة وأنبوب لصرف الماء[2]. كنت شديد النحول.

أوقف المرحاض ضوضاءه، فسمعت صوت المطر ثانية: جيش من أقزام يرقصون على السطح. كنت أميّز، أحياناً زقزقة الدوري. فتحت النافذة. كانت كبيرة بما يكفي مرور شخص واحد فقط، وثمة، في الخارج، سلّم حديدي صغير يرتقي إلى السطح.

غسلت وجهي وشرعت أحلق لحيتي. يقلقني شيئان: اختفاء العبوات والقوارير التي كان يزدحم بها، عادة، خزان المرحاض، وسماع البيت كله ضجة آلة الحلاقة اللعينة «Remington». يفكر الناس من مواليد برج الميزان، غالباً في أمرين معاً.

أعدت آلة الحلاقة إلى العلبة. على التزلج السلام، بعد هذا المطر. لا أقول هذا من أجلي، إنما أفكر في «إيليز» و«بيل» اللذين كانا يذهبان إلى بحيرة «بوبور» في نهاية كل أسبوع. ولكن، لعلها لاتزال تثلج في «لورانتيد». لقد شفي زنده تماماً، لاعب الهوكي. سيعود، عمّا قريب، إلى «فيلادلفي» من أجل مباراة التصفية. لقد استدعاه فريق «فلايرز»، الذي أنهى الموسم محتلاً المرتبة الثانية. كان لديه، طبعاً، حارسان جيدان. لم يكن يفتقر إلّا إلى هدّاف أو هدّافين ماهرين. يجب أن أقول هذا لـ «بيل» كي يقترح على مدربه: تبديل أحد حارسيه بهدّاف قوي.

كنت أقوم بحيلة. تغمض عينيك، تقرّب وجهك مسافة عدّة بوصات من المرآة ثم تفتح عينيك فجأة، أو مولياً ظهرك للمرآة تتراجع

---

(1) ليڤر، ليبرة = 453,59 غراماً. م.

(2) لعله يقصد بذلك الساعدين والساقين والجذع. م.

صوبها ثم تلتفت على حين غرة: تُحظى، خلال ثانيتين، برؤية الوجه الآخر. رأيت «ناناموسكوري»[1]، أو ما شابه ذلك. ربما، بسبب النظارة والشعر المُسبَل على عنقي. أو لسبب آخر. رأيت «جيمي». حاولت مشاهدة «بيل» طبعاً، غير أنك لا ترى ما ترغب فيه. أعدت الحيلة بأساليب متنوعة، ولكن دون جدوى.

إن ما كنت أفكّر فيه، خارجاً، من الحمام هو «High Noon».. أغنية الفيلم. إنه لحن قديم يميل المرء إلى أدائه بالصفير. لو كنت أملك منزلاً، لاشتريت «Juke - Box»[2] قديماً، ووضعته في القبو. لم أكن أرغب في الذهاب إلى البهو. قليلة هي الأشياء التي أحببتها كما أحببت «صندوق جوك» ولا حتى المنحوتات. كنت أستثني طبعاً، «كاتدرائية رودان». إنني أفكّر في هذه الأشياء التافهة، لأنها تمنعني عن التأمّل. شيء واحد لم أكن أحبه في «صناديق جوك» هو «hit - parade»[3]. كانت معظم الأغاني لا تستحق الاستماع إليها، على الرغم من وجود أغان بديعة بينها أحياناً. كنت سأملأ «صندوقي» بأغاني «ليو فيري». لم أكن أرغب في الذهاب إلى البهو لأنني بدأت أفهم. إن «ليو فيري» هو من كتب أجمل الأغاني. أو بالأحرى بدأت أسلّم بأنني فهمت. كانت أغنيتي المفضلة هي «la mélancolie»[4]. كنت أشعر، مع انهمار هذا المطر على السطح، بالكآبة. كان «ليو فيري» يقول عن «المالنخوليا»: «يأس لا خلاص منه».

فتحت باب البهو.

---

(1) مغنية يونانية الأصل تعيش في فرنسا وتغني بالفرنسية. م.

(2) «صندوق جوك»: آلة باسم مخترعها وهي بشكل صندوق توضع في المحلات العامة وتحتوي على أسطوانات يختار الناس منها ما يشاؤون عند إنزال قطعة نقد في ثقب خاص فيها. المنهل.

(3) قائمة الجواز.

(4) مالنخوليا: الكآبة المبهمة. الحنين، السويداء.. الخ. م.

حقائب سفر. كانت خَمْساً. أربعاً، أعرفها وواحدة أخرى. كانت موضوعة. قرب المدخل. كانت إيليز ولاعب الهوكي جالسين في طرفي الأريكة.

أومأت برأسي لإيليز، إيماءة خفية، بأنني أدركت كل شيء، ولمحت زاويتي شفتيها ترتخيان خلسة، كان لابد من انتباه زائد لمعرفة إن كان ذلك تَبَسُّماً. كان في داخلي فراغ، باستثناء موضع الطير الجريح، وثمة حيِّز كبير لإدخال ما يجري في الخارج. كان عقب سيجارة «جيتان» يرسل دخاناً في المنفضة. كان المطر ينقر النافذة: كان الهواء، إذن، شمالياً، لم يكن الربيع قد أتى فعلاً، ولايزال هطول الثلج محتملاً. نعتقد أن شيئاً قد انتهى، ولكنه ليس كذلك.

جلست، قبالتهما، على الكرسي واضعاً، تحتي، قدمي الحافيتين. لم أكن حزيناً كثيراً، إنما شبه كئيب، فقط، بسبب الحقائب والمطر وكذا بسبب هذا الخوف الغامض من العيش وحيداً. كان الصمت مطبقاً، فقلت:

- ستستقلان الحافلة من محطة القطارات المركزية؟

أخذا ينظران إليّ بطريقة غريبة. أدركت أخيراً: إنه صوتي. في الصباح، عندما أباشر التحدث إلى الناس، يكون صوتي مشوشاً تماماً، لا يُسمع فيه سوى نوع من النخير. صفّيت صوتي ورددت الجملة، فأجابت إيليز:

- نستقل القطار.

تبدو مرتاحة، ويكف «بيل» عن التحدّيق في حذائه. التفتت إيليز نحوه:

- في الساعة الثامنة والنصف، أليس كذلك؟

أشار بالإيجاب مطاطئاً رأسه عدّة مرات.

سألتني إيليز:

ـ ألم تفطر؟

ـ كلا.

كان الحديث يريحها. إنها تعلم جيداً إنه لم يكن لدي وقت للأكل.

ـ هل تريد أن أجهز لك شيئاً؟

ـ ربما، كأساً من عصير البرتقال، إذا تفضّلت.

ـ دون شك.

لم تنظر إلى ساعتها ولا إلى الساعة الجدارية. نهضت فأغمضت عيني لأتخيل ما كانت تفعله: تفتح الثلاجة، تأخذ برتقالتين، تردّ الباب، تخرج العصارة البلاستيكية الزرقاء من الدرج...

صاحت:

ـ مع السكر؟

ـ من فضلك؟

شعرت بنفسي، خلال عدّة ثوان، مغموراً بموجة من الحزن، بسبب هذا السؤال الغبي عن السكر، ثم مرّت الموجة وعاد الهدوء. خرجت إيليز من المطبخ وقدّمت لي الكأس، فقلت لها:

ـ شكراً جزيلاً.

كانت الكأس طافحة. لقد عصرت ثلاث برتقالات. كان السكر قد بدأ يترسب في العمق، إنه لا يذوب جيداً قط في عصير برتقال حقيقي.

أسأل إيليز هامساً:

ـ لعله يتناول فنجاناً من القهوة أو كأساً من الجعة؟

نظرت إلى «بيل». لقد سمع، وأخذ يبتسم قائلاً:

ـ ربما، فنجاناً من القهوة.

ـ حاضر.

رجعتْ إلى المطبخ. سمعتُ صوت الأواني، عادت، بعد عدّة دقائق، تحمل فنجاناً من القهوة يتصاعد منها البخار. قال «بيل»:

ـ شكراً جزيلاً.

ـ احذر حرق فمك.

ـ شكراً.

كانت عيناه أشبه بعيني كلب تُرمى له عظمة. شرب جرعة وقطّب فسألت:

ـ أهي ساخنة؟

أجاب مرتبكاً:

ـ جداً.

ـ إنك تشرب بسرعة شديدة.

ـ حالتي سيئة، في هذا الصباح.

ففسّرت إيليز:

ـ إنه يعاني من عُسر هضم.

ـ كيف؟

ـ لا أدري. كما قبل مباراة الهوكي. إذ يحدث لي غالباً أن أحس بعسر هضم، قبيل القفز على الجليد بالضبط.

قلت:

ـ إنه التوتّر. هذه حال الكثير من اللاعبين المميزين.

ـ معقول؟

ـ «غلين هول» مثلاً. يحدث له هذا كثيراً.

ـ يطيب لي أن أسمعك تقول هذا. فلم أكن أجرؤ على التحدث إليك عنه.

ـ و«رالف باكستروم» أيضاً، ولكني لا أستطيع التأكيد على ذلك. إنه، على كل حال، أكثر لاعبي فريق «كَنَديان» توتراً.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ وما أن يقفز إلى ميدان التزلج، حتى يعود كل شيء طبيعياً.

ـ أنا أيضاً.

شرب، بحذر، جرعة أخرى قائلاً:

ـ إنك تعرف عن الهوكي أكثر مني!

ـ إنها معارف نظرية.

قلت ذلك، شاعراً أن العبارة ليست في مكانها.

كانت إيليز ترنو إليّ، وفي عينيها نوع من دفء. إنها لم تفكر، قط، في النظر إلى الساعة. سألني «بيل»:

ـ ألم تلعب أبداً؟

ـ بلى. في المعهد.

ـ أي موقع؟

ـ دفاع أيمن.

ـ أما كنت جدّ... خفيف، كلاعب دفاع.

ـ عانيت، عندما رغبت، أول مرّة، في خبط أحد اللاعبين بسور الملعب، من ألم في كتفي شهراً كاملاً!

ـ خلع كتف؟

ـ شيء من هذا القبيل.

يحس المرء، عندما يكتب، إنه خارج كل شيء. وكي يحس بأنه مساهم في الأمر، يروي لنفسه قصصاً. كانت الخادمة، عندما كنت طفلاً، تُسمى ماري ـ أنج[1]، رقيقة كاسمها، تروي لنا حكايات كي ننام، حكايات رائعة جدّ قديمة، مثل العديد من مغامرات «الصغير جان والعمالقة».

سأل لاعب الهوكي:

ـ فيمَ تفكر؟

أجبت:

ـ في أمر غير ذي شأن.

ـ معذرة.

نظر إلى إيليز. ظهرا، خلال بعض ثوان، وكأنهما يتخاطبان بصمت. تركتهما وشأنهما قليلاً، ثم سألت:

ـ هل ستلعب في مباريات التصفية؟

ـ ليس هذا أكيداً. استدعوني، لحالات الإصابة.

---

(1) ماري ـ أنج: حرفياً ماري ـ الملاك. م.

ـ هل هناك لاعبون مصابون؟

ـ ليس بعدُ.

وإذ فترت، فجأة، رغبتي في التحدّث عن الهوكي، شربت، بجرعة واحدة، ما تبقى من العصير مبقياً على الكأس مرفوعة ليسيل السكر على لساني. كنت أفكر، في هذه اللحظة بالذات، في أخي «ڤان غوغ» وأقول لنفسي إن كان من الممكن أن يكون لي أخ «تيو» أو من شابه. إيليز وأنا، لم نتحاور، في الواقع، أبداً. بغتة سمعت نفسي أقول لها:

ـ قلتِ إنك ستنتظرينني...

ـ ماذا؟

أعدت القول بحذر أكثر:

ـ أما قلت لي إنك ستنتظرينني عند المخرج؟

كانت تبدو أنها تبحث... رغبت، مرّة أخرى، في أن أكون في مكانها، لأعرف كيف تنظر إلى الأمور. سأل «بيك»:

ـ أي مخرج؟

كانت لاتزال تبحث. وأنا صامت. لم يجبه أحد.

فقال:

ـ معذرة.

قلت إزاء ارتباكه:

ـ لابأس.

قالت إيليز:

ـ اذكر، السفر إلى القطب الشمالي.

فصححت:

ـ القطب الداخلي للذات.

ـ آه، صحيح! عبارة «أندريه مالرو» الجميلة!

فككت ساقي ووضعت قدمي الحافيتين على السجادة قائلاً بقليل من نفاد صبر:

ـ إنه «أندريه بريتون».

ـ صحيح اعذرني، فأنت تعرف أنني لا أفقه شيئاً في الأدب.

استغربت قولها. فلقد أهديتها، في عيد ميلادها «قلّاع القلوب». واشتريت كذلك «خدّاع القلوب»، لقراءته في الوقت ذاته. كنا نقرأ ببطء ونتحاور، متمهلين، في أمر الروايتين. ثم تبادلنا الكتابين. وتكون لدينا، في النهاية، انطباع أن «بوريس ڤيان» و«سالينجر» كان كلّ منهما يعرف الآخر.

انتظرت دقيقة ثم قلت:

ـ قلنا إنني سأقوم، وحيداً، برحلة طويلة وإنك ستنتظرينني عند المخرج.

ـ أذكر، الآن أذكر جيداً.

أشرق وجهها.

ـ إنني جد سعيد بأنك تذكرين.

ـ وأنا أيضاً جدّ سعيدة.

ابتسم «بيل» دون أن يفهم. خفّ نَقْر المطر على السطح. كنت أسائل نفسي إن كانت السماء لاتزال تثلج في مناطق «لورانتيد». نظرت إيليز إلى ساعتها ونهضت. قام لاعب الهوكي أيضاً وأنهى فنجان قهوته واقفاً. ذهبت أجلس على متكأ النافذة النصف دائرية.

تقدمت إيليز مني. نظرت إلى الخارج مستفسرة:

ـ أما تزال تمطر؟

ـ لاتزال تمطر.

توجهت، بعدئذ، صوب جهاز الهاتف وطلبت سيارة أجرة.

وجدت، عندما كنت صغيراً في صباح الخامس والعشرين من شهر كانون الأول، قطّي، متيبساً تماماً، تحت شجرة «نويل»، وميتاً. كان قطاً أسود صغيراً، ولكنه بدا كبيراً، لأنه كان متصلباً. وَسِعه تماماً صندوق الأحذية الذي وضعناه فيه لدفنه في أحد الأمكنة. نقبت بين ذكرياتي. ربما خلف المنزل، حيث كانت ثمة حديقة مهجورة. لم أستطع أن أذكر تماماً أين دفناه. كلما أقبل «نويل» كان عيد ميلادي، ومنه جاء اسمي.

* * *

تتنفس «الحوت الأزرق»، تنفساً قوياً، في عنقي. وأبدأ في إدراك أشياء: الطيور وقصة «جيمي» وأسئلة الدكتور «غروندان». ولكن الوقت صار يمضي على نحو أسرع.

تدس «شارلي» إحدى ركبتيها بين ساقيّ، ترفع رأسها قليلاً، وتبدأ، منحنية عليّ نصف انحناءة، تبلِّل، برأس لسانها، محيط شفتي، تقبلني، بتمهل، قبلات قصيرة، كأنّها تتذوّق شيئاً. أشعر بالراحة ويعم الدفء داخلي وأرغب في أن يتوقّف الزمن. قالت في النهاية:

ـ باستطاعتك أن تقبّلني أيضاً.

أُقبّلها بدوري، في عينيها، أتابع ضمها، بشدة، إلى صدري، وأتنفس، مثلها، تنفساً قوياً. إنها هشّة، مرتعشة بأكملها. وجودها هنا، مؤثِّر، وقُرْبها الشديد لا يكاد يُحتمل.

تنتابني، لحظةً، فكرة الارتداد، ثم تنصرف بذاتها، وأبدأ أحس، في داخلي، بالدفء والراحة. تهمس شارلي:

ـ إنني مرتاحة معك. هل أنت مرتاح أيضاً؟

ـ أنا مرتاح.

ـ كانت أرجوحة موجودة تحت صفصافة كبيرة قرب بيتنا، والحبال مربوطة إلى أقرب غصن، ينحني حتى يمس الأرض. هل تستطيع تخيل ذلك؟

ـ نعم، أستطيع.

ـ وأستطيع أن أقول لك شيئاً؟

ـ أجل.

ـ ينبغي الذهاب، بعد قليل، إلى «سان ـ نيقولا».

أقول بشيء من الحزن:

ـ أعرف.

ـ بسبب سيمون، وبسبب كل ما تبحث عنه.

ـ كنت أعرف ذلك منذ أن تحدّثت إليّ عن «الأخت كلير».

ـ تعرف، إنني لن أكون هنا دائماً.

ـ أعرف.

أضافت:

ـ لا بد من بلوغ نهاية الأشياء.

ـ طبعاً.

قلت ذلك مفكراً في الأغنية التي تقول: «لم يبق لي إلا القليل من الوقت كي أبلغ نهاية ذاتي». إنها من كلمات «أراغون»، يغنيها «ليو فيري» من صميم قلبه.

تقول شارلي:

ـ ليس ثمة ما يدعو، الآن، إلى العجلة.

ـ أريد أن أبقى بعدُ قليلاً.

امرّر، من تحت الكنزة، كلتا يدي على صدر شارلي حيث التجويف الصغير. قائلاً:

ـ للتدفئة.

فتردّ مسندة جبينها إلى جبيني:

ـ دون شك.

ـ كم هو صغير، هنا!

ـ طالما تمنيت أن أكون صبياً.

ـ هل تعتقدين أن الأمور المتعلقة بالجنس وما شابه ذلك، هي أمور هامة؟

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ لماذا؟

ـ الحياة جدّ عظيمة.

ترسم إشارة كبيرة، ثم تعود إلى تطويق عنقي بذراعيها وتشدني، بغتة، حتى كَتْم أنفاسي وتسأل:

ـ هل تعرف؟

ـ ماذا؟

ـ إنني أعشقك، في هذه اللحظة.

لا أقول شيئاً. يباغتني الأمر ويمنعني عن الكلام.

تتابع:

ـ مع أنني ما عدت أملك قلباً.

ـ صحيح؟

ـ لقد منحته أحداً.

ـ ماذا؟

ـ وهبته لسيمون.

تبعد رأسها وترنو إليَّ:

ـ ألستَ على ما يرام؟

ـ لابأس. كنت أفكر في شيء، والآن انتهى.

ـ وأنتَ؟

ـ ماذا؟

ـ هل تعشقني؟

ـ لست على يقين، ولكني أظن ذلك.

تتابع:

ـ لكن، في هذه اللحظة فقط.

ـ أجل، فلا تقلقي.

ـ هكذا، نبقى أحراراً.

ـ طبعاً.

ـ ثم ماذا ستفعل بـ «بحوت أزرق» مثلي؟

أجبت بشيء من الحزن:

ـ هذا صحيح.

سألتني مغمضة عينيها السوداوين:

ـ لماذا أنت بالغ الرقّة هكذا؟

ـ لا تقولي هذا، لا تقولي.

أغمض عيني أيضاً.

ننام بضع لحظات، ذراعاها تطوقان عنقي، يداي تختبئان في نقرة صدرها.

تكلمتْ، قبل أن تغفو، عن ممر يهبط من الجرف، ما بين قرية «سان ـ نيقولا» والشاطئ، وشعرتُ أن ذلك يناسب قصتي كثيراً. إذْ أدركت أن الرقَّة هي الممر الذي يفضي إلى الموت، كما أن الموت هو أشبه بنهر. يقيناً، إن للكلمات روحاً. شعرت بالغثيان، رغبة مفاجئة في التقيُّؤ. ساءلت نفسي، عمّا إذا كان الارتداد قد بدأ، دون علمي، بهدوء شديد. لم أفكّر كثيراً، أبداً، تقريباً. تسير الكلمات، بمشقة، في داخلي ثم تخرج إلى النور أخيراً. أدركت شيئاً آخر: الرقّة، الأسمى هي الموت. بعدئذ غفونا معاً، كما قلت.

ثم تهيجت.

أقصد: كانت امرأة، وكنت مهيّجاً، كانت بين ذراعي. يغمرنا الدفء فندور من جنب إلى آخر، ونتنفس مثل حوتين أزرقين.

تنهض شارلي فجأة، وتجلس على عقبيها قائلة:

ـ لقد أيقظنا القِط.

ـ ماذا؟

ـ أيقظنا القِط.

ـ ولكن...

ـ وما الفرق. وكأن هناك قِطّاً. فلا ينبغي، أبداً، أن نهتاج ونوقظه.

ـ طبعاً.

تميل، وتدس أنفها في صدريتي الرمادية القديمة قائلة:

ـ رائحتها كرائحة لحاء الشجر.

تستقيم ثانية وتقول:

ـ يوجد قِط في «سان ـ نيقولا». يسميه سيمون «شانوان».

أقول، جالساً على الأريكة قربها:

ـ يمكننا أن نذهب الآن، إذا شئتِ.

تقول مصححة:

ـ «إذا شاء قلبكِ».

ـ إذا شاء قلبكِ...

ـ سيجارة، وننطلق. واحدة فقط لكلينا.

السيجارة مدعوكة قليلاً. أشعلها، أسحب منها نَفَساً طويلاً ثم أعطيها لها. تقول:

ـ إنه قِط صغير أسود.

ـ طبعاً. والمنزل، ألا يشبه منزلاً للأطفال؟

ـ لا ينبغي التحدّث عنه، الآن.

ـ ويكمن خلف نَسَق أشجار في عمق حديقة؟

ـ سترى جيداً.

ـ وثمة، عند منحسر الشاطئ، شِباك لصيد «الحنكليس»؟ وصخرة كبيرة زاحفة صوب الماء؟

ـ لديك صوت طريف.

ـ وعلى هذه الصخرة تجلس «الأخت كلير» في ثوبها الأبيض الذي يبلغ الأرض؟

بعدئذ، تسكت. افكر في فيلم أمريكي قديم River of no Return[1] بطولة «مارلين مونرو». أرى، ثانية، الرجل والمرأة والطفل على عوامة يجرفها سيل النهر السريع. عندما تسافر داخل ذاتك، تجرفك التيارات حتماً، صوب الطفولة وما بين مشاهد الذاكرة القديمة، ويهددك خطر كبير في العثور ثانية على ذكريات تجعلك تضل طريق العودة. من الصعب معرفة السبب، لذلك أسكت وتسكت شارلي، كأنها تسكت من باب الاحترام.

* * *

سحبتُ الباب وألقيت نظرة على داخل مطعم «بواد»: كان مكاني شاغراً. دفعت الباب الثاني.

---

(1) نهر اللاعودة.

كنت أتوجه، مسرعاً، صوب اليمين عندما انبثق المدير من وراء المنضدة وسدّ عليّ الممر قائلاً:

ـ سيدي؟

كان يحمل بين ذراعيه المشبوكتين كُدساً من «قوائم الطعام». تابعتُ نظرته المستهجنة تستعرض نعلي الـ «موكاسان»[1] و«جينزي» وصدريتي العتيقة وشعري الطويل.

ردّد بجفاء:

ـ من هنا، سيدي.

قادني إلى الممر الأيسر، وتوقف عند طاولة صغيرة فردية حيث وضع «قائمة الطعام» قائلاً:

ـ ها هنا، سيدي.

غمغمتُ، عيناي تحدقان في الأرض، بأني أنتظر أحداً.

ـ هاه! ينتظر سيدي أحداً...؟

كان يلفظ «سيدي» مشدِّداً على المقطع الأول. بدأ يكرهني قليلاً. درت، فجأة، على عقبيّ وتوجهت صوب الممر الأيمن، حيث مكاني الاعتيادي.

كنت أعرف أيضاً ما عدا مطعم «بوآد» مطاعم مثل «دونغز» الأكثر رخصاناً و«أو ديليس» الأبعد قليلاً، و«غرناطة» في أسفل منحدر «فابريك» المقفر، على الدوام، تقريباً. و«لاكلوش دور» في شارع «سان ـ جان» حيث تفوح رائحة غريبة لخشب متعفن. ومطعم «جورجيز غريل» القديم

(1) موكاسان: حذاء هنود أمريكا الشمالية وطيء بلاسيور. المنهل.

والكريه منذ افتتاحه في شارع «سان ـ لوي» ومطعم الوجبات الخفيفة «الوويت» للناس المستعجلين. ولكنني كنت أفضل «بوآد» بسبب العجوز «ماري».

تقدمتْ مني قائلة:

طاب نهارك، سيدي.

ـ طاب نهارك، آنستي.

كنا نتخاطب بصيغة الجمع، وكنت عندما أناديها «آنستي» أفكر دائماً في يَعْسوب[1]. إنها قصة جدّ قديمة. كانت العجوز ماري قصيرة شقراء ذات وجه مليء بالنمش، تقول إنها من عمر «ڤيو ـ كيبيك».

أقول:

ـ معذرة، آنستي، إنني أنتظر أحداً.

تردّ ماري بصوتها العجيب، الصدئ مثل وجهها:

ـ وهو كذلك، سيدي.

أعطتني «قائمة طعام» ووضعت الثانية على الغطاء الصغير في الطرف الآخر من الطاولة. سحبتْ، من جيب مئزرها، دفتراً وقلم رصاص تضع رأسه في فمها. تظاهرتُ بالإطلاع على «قائمة» وجبات اليوم، في أعلى الصفحة، وقلت بعد دقيقة:

ـ أعتقد أنني سأنتظر.

ـ إذا كنت ترغب في ذلك.

ـ لن يطول الأمر.

---

(1) ملكة النحل. م.

ـ أتريد شراباً محرضاً للشهية؟

ـ كلا، شكراً.

ـ يمكنني ملازمتك.

ـ لطف زائد منك. ولكن لا يفضِّل هذا بسبب مديرك.

ـ صحيح. سأعود، إذن، بعد قليل.

كان ينبغي، دائماً، قول الكلمات ذاتها وعدم الخطأ. وكان الحظ، إن أدّى كل منا دوره جيداً، يحالفنا بعض الوقت. كان ذلك بمثابة طقس عائلي.

لم تعرف ماري البسمة أبداً. ببساطة، لم تتعوَّد عليها: كان كل شيء يتمّ في عينيها، لو كلفنا أنفسنا عناء النظر. كانت تكتب أشياء على أغطية الطاولات. منحنية على غطاء أبيض صغير، مكان إيليز، كتبت، ذات مساء لا يأتي الحظ فيه، شيئاً وانصرفت إلى المطبخ. استطعت قراءة:

لا جنس له، ولا عمر

يشبه القط أحياناً

نقيض الازدراء

اسمه الحنان

كانت العجوز ماري صديقة جميع روّاد «بوآد»، الذين كانوا يأتون في ساعة معينة ويحتلون، دائماً، الأماكن ذاتها. ولكن كان ثمة أمريكيون أيضاً. كانوا، قبل أن يهلّ الصيف تماماً، يغزون «ڤيو ـ كيبيك». كنا نبدأ، عندما يجيئون، نشعر بالوحدة. تخدمهم ماري بصمت.

كانت عائدة.

تنتظر، الدفتر والقلم بين يديها، تستجوبني بعينيها.

أقول:

ـ لست مستعداً.

ـ ألن تأتي؟

ـ لم أوفق. إنها متأخرة.

ـ هذا بسبب الأمريكيين. يشعر المرء في وجود الأمريكيين، بالوحدة.

ـ ذلك تماماً ما كنت أقوله لنفسي، ولكنني أعتقد أن هناك سبباً آخر.

ـ تعتقد؟

ـ نعم. سيصعب هذا مع مرور الوقت. بدأت أسائل نفسي إذا كنت أحترم الوقت بما فيه الكفاية.

رضيت ماري:

ـ هذا سؤال جيد. يتطلب التأمُّل.

وضعت رأس قلم الرصاص في فمها. قلتُ:

ـ سأحاول بعدُ قليلاً.

ـ تريَّث قدر ما تشاء.

ـ ألا ينفد صبر المدير؟

ـ كلا. سأهتم بأمره.

ـ أنت لطيفة حقاً.

بدأت عيناها تتألقان.

ـ هل تريد أن أكتب شيئاً من أجل مساعدتك؟

ـ سأحاول، وحدي، بعدُ قليلاً.

ـ أغمض عينيك.

ابتعدت. أغمضت عيني كي أنسى الأمريكيين. كنت أرى جدران «ڤيو ـ كيبيك». في شارع «رامبار» بمحاذاة «غراند سيمينير» القديم، على الجدار الرمادي، كانوا قد كتبوا، بالأحمر مرّة وبالأسود مرة أخرى: **ثورة.** كنت أحب أن يكتب الناس على الجدران والمنازل والأرصفة والشوارع، وفي كل مكان. على كل حال، كنت أحب الكلمات. العلاقة بين الأشياء هي ما كانت تخفى عليّ. كان «ليو فيري» يقول إن الشعراء يكتبون تمردهم بمخالب الطيور. يعيش في صدري هذا الشيء الجديد الذي كان «سان ـ دوني ـ غارنو» يصوره مثل طير. كان «غوته» يقول إن للأفكار مخالب اليمام. كنت أخمن، دون معرفة السبب، إن الشعراء يتركوننا، أحياناً، خلفهم على طريق سيء الإنارة كالذي سلكته بغية كتابة قصتي، ويفضي، حتماً، إلى الرفض و...

ما عدت أسمع الأمريكيين.

سألني صوت العجوز ماري الأجش:

ـ هل الحال أفضل؟

أجبت بشجاعة:

ـ أجل.

ـ هل جاء الحظ؟

ـ أظن ذلك.

فتحت عيني مضيفاً:

ـ أعتقد أن بإمكان الحال أن يسير جيداً.

ـ سأساعدك.

ـ طبعاً.

لم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً دون العجوز ماري. كنت سأقول لها ذلك كي أثلج صدرها ذات يوم مكدِّر.

سألتْ:

ـ ماذا ستأكل؟

ـ دقيقة واحدة.

كانت لحظة حرجة.

اقترحت ماري:

ـ مِثل إيليز؟

ـ نعم.

فقالت وهي تكتب في دفترها:

ـ طبقان من حساء البازيلاء إذن، وصحنا «عجة» إسبانية.

ثم أضافت في الحال:

ـ وللسيدة طبعاً، بطاطا مقلية. وللسيد؟

أجبت بشيء من الفرح:

ـ بطاطا مهروسة.

فكتبت ماري التي كان وجهها مغلقاً وعيناها متألقتين:

ـ بطاطا مهروسة للسيد.

لمّت دفتريْ «قائمة الطعام» قائلة:

ـ شكراً.

كانت تقول «شكراً» دائماً، وكأنها تلقّت، للتو، معروفاً، وكان

يطيب سماع صوتها الغريب الذي يدغدغ حلقها. عادت إلى المطبخ.

كانت إيليز تخلع حذاءها. صيفاً، كانت تفعل ذلك في كل مكان. كان ثمة أناس لا يحبون ذلك كثيراً، لا سيما في المطعم، أمّا أنا فكنت أدعها وشأنها. في الواقع، وضعتُ نعلي «موكاسان»، ربما، فوق إحدى قوائم الطاولة. وليس فوق قدم إيليز، واعتذرت لأقول شيئاً.

سألت ماري، التي عادت تحمل مثل بهلوان، طبقي الحساء، وسلة الخبز والبسكويت وصحنين صغيرين فيهما مربعات من زبدة:

ـ ماذا هناك؟

ـ هرستُ إحدى قدميها.

ـ لا تبدو غاضبة.

ـ إنها بالغة الرّقة.

ـ أنتَ أيضاً، بالغ الرّقة. الأمر الذي أقدره فيكَ.

ـ تجعلينني أفكر في إحدى الأغاني...

وضعت الأطباق على الطاولة، بادئة بإيليز. كانت تضع الأشياء بدّقة متناهية بحيث لا تحتاج قط إلى تغيير مكانها لتصير في متناول يدك. بالمقابل كان ثمة أناس يبدلون أمكنة الأشياء لمجرد الإحساس بالتملك، كنت أدرك ذلك. إيليز وأنا ما كنا نلمس شيئاً أبداً، الأمر الذي كانت تفضله ماري، ولو أنها لم تقل ذلك.

تابعت:

ـ ... أغنية لـ «غي بيار».

ونغّمتُ الأغنية. أعانتني ماري على الكلمات الأخيرة التي كانت

أكثر صعوبة. كتبتْ، ذات يوم، على الغطاء أن أهم الناس في العالم هم الموسيقيون.

قالت، وهي تنظر إلى إيليز، في نهاية الأغنية:

ـ توجد، دائماً، أغنية في رأسه.

قلت:

ـ لست رقيقاً حقاً. إنه قلبي فحسب.

تنظر كلتاهما إليّ، نظرة من لم يفهم شيئاً.

فقلت ساعياً للتوضيح أكثر:

ـ أقصد أن الأمر لا يتعلق بي.

قالت ماري بغتة:

ـ من الصعب أن تعيش وتكون سعيداً.

فأجبت ناظراً إلى أمامي مباشرة:

ـ إنني سعيد لأنني أكتب، ولأن إيليز معي.

قالت ماري:

ـ إنني أحبكما.

ثم واصلت:

ـ أحبكما، كليكما. سيبرد حساء البازيلاء، والأمريكيون ينادونني. إلى اللقاء.

بدأت آكل، بتمهل وهدوء. إذ كان في وسع الحظ، لدى أول لحظة سهو، وأدنى حركة مباغتة، أن يتركني. حضّرت، من أجل إيليز، «بسكويتاً ملحاً» مع الزبدة وكنت أتكلم في الوقت ذاته. كانت صامتة.

إنها، في بعض الأيام، ما كانت تفعل شيئاً سوى الإصغاء. العجوز ماري وحدها، التي تتحدث إليها بلطف بالغ، وفي وسعها سحب بعض الكلمات منها. لم أكن أكترث بذلك، وأتابع الحديث قائلاً:

ـ إنما أكتب من أجلكِ أنتِ.

لايزال لدي الكثير مما أحكيه. يبدو المرء، عندما يكتب، أنانياً تماماً، ولكنه في الواقع يكتب من أجل أحد ما، بل لعله يكتب من أجل شخص لا يعرفه. كان يصعب تفسير ذلك، ولكنني كنت أحاول فعلاً.

جاءت العجوز ماري لترفع طبق الحساء وتضع مكانه طبق «العجّة الإسبانية». وضعت أمام إيليز الصحن الذي يحوي البطاطا المقلية، أما الذي يحوي البطاطا المسلوقة فوضعته أمامي دون أن تصدر أدنى صوت.

كنت قد بلغت نهاية تفسيري. لم تكن، إذا صح القول، النهاية تماماً، بل أبعد ما استطعت بلوغه. إن مجرد النظر إلى إيليز وتَفَحُّصها لا يمكّنك من قراءة أفكارها. كنت أرغب ثانية في أن أكون مكانها بضع لحظات، لمعرفة ذلك فحسب. تركتها تفكر عدّة دقائق، ثم منقضاً على «العجة» سألت؟

ـ أتعرفين؟

ودون أن أدع لها مجالاً للإجابة تابعت:

ـ أحس، في أثناء النوم، بأجزائي كلها متوحدةً. استيقظ، وحيداً، في سريري، لأجد الإحساس ذاته مستمراً قليلاً، غير أن الأعضاء تبدو كأنها تنفصل، شيئاً فشيئاً.

لم يبد عليها أنها تصغي إليّ، فحاولت أن أفسِّر لها أكثر. كان حديثاً

طويلاً إضافة إلى أنني تمهلت فيه كي لا تفقد إيليز تسلسله. كانت، عندما تفقد تسلسل حديثي، تكف عن النظر إليّ بعينيها الخضراوين وشعرها الغريب والقصير مثل شَعر صبي. عادت ماري. كنا أنهينا «العجّة» فاقترحت علينا تناول الحلوى. طلبنا، كلانا «البودِنغ»[1] والقهوة. وعندما أحضرت لنا ماري ما اخترنا، كنت لاأزال بعيداً عن إنهاء تفسيري، وتتابع إيليز جيداً تسلسل الحديث، وكأن الأمريكيين ما عادوا موجودين في «ڤيو - كيبيك» وأشعر بالدفء في كل مكان في داخلي، حتى تحت الندبة القديمة.

أحضرت العجوز ماري قائمتي الحساب، دسّت الأولى تحت صحني والثانية تحت صحن إيليز قائلة، في كل مرّة، شكراً. ثم سألت:

- هل حالك سيئة؟

- أجل.

- ألا تتحمل؟

- لقد وهنت فجأة. كنت أتحدث جيداً، ثم صعب عليّ العثور على الكلمات بعد ذلك. أقصد: ما عدت أجد أبداً الكلمات الدقيقة.

- يمكن أن يحصل هذا مع أي كان.

- طبعاً.

- إنها غلطتي.

- لا، أبداً.

- كان ينبغي أن لا أتركك.

---

(1) حَلْوى تُعَدّ من دقيق ولبن وبيض وفاكهة وسكّر. المورد الوسيط.

ـ لا تظني هكذا. مررتُ بلحظة ضعف.

سألتُ:

ـ هل أكلتما جيداً؟

ـ جيداً جداً. وسرّنا ذلك للغاية.

ـ لم تأكل السيدة كثيراً...

ـ إنها لا تجوع كثيراً أبداً. أليس كذلك؟

لبثت إيليز دهراً قبل أن تجيب. أشارت، أخيراً، بالإيجاب. إشارة خفية، لا تذكر، ولكن كنت سعيداً بأنها ردّت.

راحت عينا ماري تتألقان من جديد.

ـ قهوة أخرى؟ على نفقة المطعم.

ـ شكراً، هذا لطف بالغ. لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ ابقي معنا، بضع لحظات، إذا سمحت.

ـ طبعاً.

إن ما كان يجب أن يحصل بعد الخروج من مطعم «بوآد»: هو أن تضيع إيليز بين الحشد. تسير أنت على الرصيف وتتبعها بطرف عينك. تقف، لحظة، أمام واجهة مكتبة «غارنو» لإلقاء نظرة على «ألبوم» «جان ـ بول ليميو» وإذ تحدس، تلتفت فجأة: انصرفت إيليز. حينئذ، تجري على طول شارع «بوآد» ثم وسط فناني شارع «تريزور» وعلى «بلاس دارم» حيث النافورة والحناطير، وحتى بلوغ «التيراس» ناظراً إلى جميع الاتجاهات، في وسعك أن ترتقي السلّم الكبير، وتجوب منتزه «غوفيرنور»

حتى «سيتاديل» الواقع في بداية الـ «بلين» إذا رغبت في ذلك. بإمكانك الذهاب إلى آخر الدنيا.

فيم تفكر؟

سألتني العجوز ماري بصوتها الأجش الذي يباغت دائماً.

فأجبت بصدق كامل:

- في نهاية العالم.

تابعت تسأل:

- كيف حال كتابك؟

- جيد. لا أكتب، ولكني أعمل كثيراً. لابأس.

- المهم، هو العمل.

- لا أحب العمل. ولكنه يسمح بالتقدّم في داخل الذات.

- طبعاً.

كانت تردد «طبعاً» كثيراً. أحببت دائماً الناس الذين يرددون هذه الكلمة.

قالت متحيرة:

- إذا كنت تحتاج...

- لايزال لدي ما يكفيني حتى آخر الصيف.

- وبَعْدُ؟

- إنك تعرفين الأغنية: **لا يوجد «بعدُ» أكثر.**

- طبعاً. أحب كثيراً عندما يغنيها «إيف مونتان».

ـ إنك عجوز رقيقة العواطف، تبعثين الدفء في قلبي.

ـ إنني امرأة عجوز، وطائشة عجوز.

ـ هذا صحيح.

رحت أضحك بهدوء شديد. لم تكن تضحك، غير أن عينيها كانتا مغضنتين.

قلت:

ـ أحب النساء المسنات كثيراً، وذلك بسبب الدفء الإنساني والرقة.

أجابت:

ـ أنت مُهوّس حقيقي بالدفء الإنساني، ومُهوّس حقيقي بالرقة.

ـ صحيح.

ـ مع ذلك، أحبك كثيراً.

رفعت يدها وبدأت تداعب شعري المسترسل على قذالي.

ـ أحب شعرك كثيراً.

ـ ألأنه طويل؟

ـ لأنه طويل وناعم. آمل أن إيليز ليست غيوراً.

ـ إنها ليست كذلك. ليس بما فيه الكفاية.

لم تكن إليز تقول شيئاً.

قلت:

ـ أحب كثيراً أن أشعر به يتحرك على رقبتي عندما أدير رأسي.

ـ مفهوم.

قالت ذلك وهي تتابع مداعبة شعري.

ـ ويقلقني قليلاً، في الوقت ذاته.

ـ إنك، في عمقك، أكثر صلابة من انفعالاتك وأفكارك.

ـ شكراً.

نظرتُ إلى إيليز، وأدارت نحوي وجهها المتغضن، كان في عينيها الشيء ذاته الذي في عيني الدكتور «غروندان» الوديعتين. قالت في النهاية:

ـ سأساعدك على التحمّل.

ثم أضافت بعد لحظة صمت.

ـ ألا تريدان حقاً، قهوة أخرى؟

ـ شكراً. أظن أن إيليز ترغب، الآن، في الانصراف.

ألقتْ نظرة على إيليز وسحبت يدها.

ـ كما تشاءان.

ـ هل ستزوريننا اليوم مساء؟

ـ أعمل طوال المساء، ولكن ربما...

كانت تتردّد.

فقلت:

ـ أعاني، مساء، من ضيق قليلاً.

ـ مفهوم.

ـ يصعب التحمّل أكثر، في أثناء الظلام.

ـ طبعاً.

تأملتْ لحظة ثم أضافت:

ـ اذهبا إلى السينما، سأزوركما فيما بعد.

ـ أي فيلم؟

ـ اذهبا إلى سينما «أمبير» حيث فيلم **ستموت الطيور في الـ «بيرو»**. إذا كانت إيليز موافقة، طبعاً...

ابتسمت إيليز ابتسامة غامضة.

لم أشرح أبداً للعجوز ماري كيف كانت إيليز تضيع، بعد خروجها من مطعم «بوآد» بين الحشد. فلا نفع في جعل الناس تعساء.

قلت تسهيلاً للأمور:

ـ لابأس، ولكن لماذا إلى سينما «أمبير»؟

ـ لأجل الطيور، طبعاً.

ـ هل تفكرين أنت أيضاً في قصيدة «سان ـ دوني ـ غارنو»؟

ـ طبعاً.

ـ إذن، بدأتُ أفهم.

لم تقل ذلك، بل كانت تبدو تفكر في أنني تأخرت في الفهم كثيراً. سألتْ.

ـ هل الحال جيدة، الآن؟

ـ نعم. سننصرف.

ـ هل ثمة حاجة إلى أن أكتب شيئاً على غطاء الطاولة؟

ـ لا، شكراً جزيلاً. سنخرج.

ـ حظاً سعيداً، وفي انتظار اللقاء مساءً.

ـ إلى اللقاء مساء.

انتظرتُ حتى قامت إيليز، تركتُ (حلواناً). كانت تمشي أمامي. وضعتُ، عند الصندوق، قائمتي الحساب على المنضدة. تفحصهما المدير وكأنهما تحويان رسالة «مشفّرة» وأعاد لي، محدّقاً في عيني، بقية الحساب. سحبت الباب الأول لأمرّر إيليز ثم دفعت الباب الثاني الذي يفضي إلى الشارع. دخلت عجوز أمريكية قائلة: «Thank you».

على الرصيف، تركت إيليز تختار، فسارت يساراً ورحت أمشي إلى جانبها مطابقاً خطوتي مع خطوتها. يدها اليمنى مستقرة في ثنية مرفقي. يلتفت الناس، عند مرورنا. السماء رمادية مزرقة، تقرّ العين. يُسمع هديل الحمام في مكان ما من سطح الكاتدرائية القديمة. ألقيت، إزاء الواجهة الثانية لمكتبة «غارنو»، نظرة على «ألبوم» «جان ـ بول ليميو». على الرغم مني.

* * *

تعيد شارلي، السيجارة لي أخيراً قائلة:

ـ أنا مستعدة للذهاب إلى «سان ـ نيقولا». دخّن آخر نَفَس.

ـ انتظري دقيقة أخرى.

أتناول السيجارة، أجلس إلى مكتبي قرب النافذة وأفتح دفتر رسائلي.

ـ ماذا تفعل؟

ـ سأترك رسالة للعجوز ماري.

ـ أهي صديقة قديمة؟

ـ جداً.

ـ إذن، اكتب بهدوء، وتمهّل كثيراً.

ـ في وسعكِ تأمُّل البواخر، إذا شئتِ.

ـ أفضّل أن أتأملك وأنت تكتب، إذا سمحت بذلك.

ـ طبعاً.

ـ تشغل مكاناً قبالتي، في الطرف الآخر من الطاولة، ما بين قاموسي «بيتي روبير» و«علم الاشتقاق». تشعل، من أجلي، المصباح القابل للمدّ، الذي يذكرني دائماً بذراع طويلة، ذات عظام وعضلات ويدٍ مضيئة في الطرف، ثم تشبك ذراعيها فوق المكتب مسندة ذقنها إلى معصميها. تقول:

ـ بإمكاني أن أقرأ بالعكس، ولكني لا أريد رؤية ما تكتب: أريد، فقط، أن أتأملك وأنت تكتب.

ـ طبعاً.

فكررت:

ـ ولكن اكتب بهدوء، إذا كنت تكتب لصديقة جدّ قديمة.

أكتبُ في أعلى الصفحة:

«عزيتي، العجوز ماري، رفيقتي القديمة».

أفكّر قليلاً ثم أتابع:

«سأدع المصباح، قبل الانصراف، مشتعلاً: سيخف، عند مجيئك، إحساسك بالوحدة. أشكرك على مساعدتي في إدراك أهمية الطيور. كان بودي قول ذلك، مُشافهة ولكن لا وقت لدي بعد: راحت الأمور كلها تسير بسرعة شديدة، بدأ الارتداد، ولايزال، مع ذلك، الكثير جداً من

أشياء يجب القيام بها. قولي لإيليز، إذا رأيتها ثانية، إنني بلغت نهاية الرحلة، ولايزال في وسعها انتظاري عند المخرج.

«ستجدين، إذا فتحت الجارور، مخطوط قصة غير منتهية. إن التفكير في أنك قرأتها، سيبعث الدفء في قلبي. لم أعنونها، ولكنها تُسمى، **شارب النسله العتيد**. بعدئذ ستحرقينها كي لا تقع بين أيدٍ أخرى.

«بودي أن تعتني بلوحتي، ستكون في أمان عندك. مع صورة هيمنغوي الكبيرة. هناك أيضاً، أسطوانات «ليوفيري». بإمكانك، إذا شئت، ترك الأسطوانات الأخرى. الكتب، عليّ أن أطلب منك نقلها جميعاً، إنها كثيرة، ولكني أحاول أن أكون مستقيماً مع ذاتي. سأتعرف، عمّا قريب، إلى شخص يسمى «سيمون». في وسعه مساعدتك. لديه كل ما يحتاجه النقل، سأتحدث إليه عن ذلك».

لاتزال شارلي ساكتة فأتابع:

«عزيزتي ماري، راحت الأمور كلها تسير بسرعة شديدة، كما قلت لك، وروحي قلقة. يصعب تفسير ذلك. هناك أشياء تبدو تافهة، ثم... أعرف أنني سأسبب لك المتاعب. أجد نفسي، أخلاقياً، مرغماً على فعل ذلك، لإنهاء السفر آمناً، وبلوغ القطب الداخلي.

«هل تذكرين اليوم الذي سافرت فيه إلى «تويكسبوري»؟ ركنت حافلتي الـ «Tiger» إلى جانب الطريق الذي يحوط القرية: تأملت الكنيسة، وحيداً على هضبتها المرتفعة. وفي الأسفل تماماً، في جوف الوادي، كانت المنازل المتراصة على ضفة النهر، تبدو بالغة الصغر، ثم الجبال الجميلة الشجراء الأكثر قدماً في العالم، جبال «لورانتيد» التي تحوط، مثل علبة جواهر، ذلك كله. مشهد يبهر بصرك، إذا ما نظرت إليه من الأعلى، من مكان معين على الطريق قبل الكنيسة بقليل. نظرت،

ولكنني أشعر بالذنب لعدم التأمّل، كما لو أني أهنت أحداً. هل تفهمين؟ ثم أحسست، بالمقابل، إن الكنيسة تبدو وكأنها تسهر. فكرت في أهمية الساهر، وما قاله عنه «سان ـ اكزوبري» في كتابه الأخير. منذ ذلك الحين، تركت، باستهتار، كل ذاك للمصادفة حيث تتلاشى الأشياء. هل تفهمين؟

«حصل لي شيء مشابه في «بور ـ أو ـ بيرسيل» وهي قرية في «ريف نور» ليست بعيدة كثيراً عن «سان ـ سيميون». وللنزاهة التامة، لا أكون مرتاح الضمير كذلك عندما أتذكر «بيه ترينيته» شمالاً أكثر. أمّا بالنسبة لهذه الأخيرة، فيمكنني التحمّل، إذا كانت شديدة عليك، لأنني أمضيت ليلة هانئة تحت الخيمة وسط الرمل على ضفة النهر، وأفقت جدّ مبكر لرؤية شروق الشمس واستيقاظ القرية.

«عزيزتي ماري، لم أعثر ثانية أبداً على الأغنية التي كان يؤديها «إيف مونتان» منذ زمن جدّ بعيد، وتُسمّى، كما أعتقد: **نشيد الأنصار**. إنها قديمة جداً روسية الأصل ربما، لست واثقاً. إنها في غاية الأهمية، فهي أول أغنية سمعتها، من أسطوانة، لدى جدي عندما كنت صغيراً. تتحدث عن الغِرْبان والقنابل اليدوية. نشيد ثوري، أذكر بعض الكلمات:

غداً، سيجف دم أسود تحت

الشمس الساطعة فوق الطرقات

نشيد مؤثر ورزين وشيّق للغاية. تصمت الموسيقى في بعض الأماكن، فلا يُسمع سوى خبط أقدام متقطّع على الطريق. في وسع «راوول روا» مساعدتك. لقد اكتشف، تحديداً على إحدى أسطوانات «إيف مونتان» القديمة، أغنية ثانية قديمة وعسكرية، هي أيضاً جدّ شيقة اسمها **الهضبة الحمراء**. إنه يسكن في «سان ـ فابيان ـ سور ـ مير» ولكنه يأتي إلى «كيبيك» بين الفينة والفينة. وحتى إن عجز عن مساعدتك فسترين كيف:

ستبعث الدفء في قلبك، كل الأغاني القديمة التي يعرفها. كما في وسعك أن تطلبي منه بأن يغني لـ «فريدي» وسيغني، إذا كان في وئام مع ذاته.

«عندما سيكون لديك متسع من الوقت .. فقط، عندما سيكون لديك متسع من الوقت ـ ستستمعين، من أجلي إلى **رفيقي**، وهي إحدى أغاني «ليو فيري»: لون غلاف الأسطوانة أحمر فاقع. إنها من أرق أغانيه، لم أستغل الوقت لسماعها غالباً بما فيه الكفاية. وأغنية أخرى، إذا سمحت لي، أغنية قديمة لـ «لوي أمسترونغ»:

A kiss to build a dream on.

أشعر بالذنب للسبب ذاته».

لا تتحرك شارلي قط، وأتابع رسالتي:

«عزيزتي ماري، ثمة أسئلة ندعها خلفنا دون أجوبة. إنك تعرفين كم كان العجوز «هيمنغوي» يحب الصيد. وكان، على الرغم من ذلك، متعلقاً ببومة بيضاء كان جرحها. وإذ كان يرعاها، فقد دأب أن يقتنص كل يوم فأراً من أجلها، وأحس بالتعاسة عندما حررها. فكيف كان في وسعه أن يحب الصيد، ويفعل هذا؟ حدث ذلك في سنة 1958، في «اداهو» بـ «كيتشوم» قرية صغيرة واقعة على الجبال القريبة من ميدان «التزلج» في «Sun Valley». هل تفهمين؟ أمّا أنا، فلم يكن لدي الوقت للفهم. إن أثمن ما نملكه هو الوقت، ووقتي، يمضي على غير هدى..

«الآن، عليّ أن أتحدث إليك عن ف. سكوت فيتسجيرالد» وروايته «The Great Gatsby». عشقت هذا الكتاب منذ الوهلة الأولى، عندما كنت طالباً في الآداب، ثم هجرته بِخسة. عرفت، منذ ذلك الحين، وأنا أقرأ مذكرات «هيمنغوي» الباريسية، كم كانت الكتابة صعبة على

«سكوت فيتسجيرالد» بسبب «زيلدا» التي كانت شبه مجنونة وجدّ غيور من عمله. ولم أكلف نفسي، مع ذلك، عناء قراءة الرواية مرّة أخرى، وأشعر بذنْب فظيع. بسبب خسّتي. كان «هيمنغوي» يقول إنه لابد من أن نكون طيبين ومتفهمين إزاء «فيتسجيرالد».

«وجب عليّ أن أقرأ «باشيلار»[1] من أوله إلى آخره، لاسيما من أجل ما يتحدث، عن النار والشموع، و«هنري بوسكو»[2] في الوقت ذاته. و«رسائل إلى شاعر شاب» لـ «رينيه ـ ماريا ريلكه»[3] نظراً لأهميتها.

ثم جميع الرسائل المتبادلة بين «فان غوغ» وأخيه «تيو» لما فيها من دفء إنساني.

«لعلني، أبدو تعيساً، ولكن هذا غير صحيح. أشعر بالإثم، فحسب. وأعرف أيضاً، أنني أطلب منك أشياء كثيرة للغاية. بودي، في الوقت ذاته، أن تبدئي نسياني، اعتباراً من الآن، بهدوء بالغ، ثم أكثر فأكثر كل يوم. أقصد، أن تبدئي نقلي إلى ذكرياتك.

«كان بودي، يا عزيزتي ماري، أن أحاورك حواراً طويلاً عن القطط، لأنها ودودة وغير دنيئة البتة، ولأن على الحرية الحقيقية أن تكون شبيهة بها. لقد فات الأوان، بالنسبة إليّ، ولكن في وسعك التحدث عن ذلك إلى فتاة جدّ يافعة، تتسكّع، غالباً، في أنحاء «بلاس دارم»، تمشي حافية وتشبه الصبيان، وتستجيب، إذا طاب لها ذلك، لمناداتها باسم «شارلي ـ الحوت الأزرق» لا أعرف إن كنت محقاً: فأنا لم أثق أبداً، بأي شخص لا يحب القطط. وكنا سنتحدث أيضاً عن «ڤيو ـ كيبيك» ونبحث عن

---

(1) غاستون باشيلار: فيلسوف فرنسي (1884 ـ 1962).

(2) هنري بوسكو: كاتب فرنسي (1888 ـ 1976).

(3) رينيه ـ ماريا ريلكه: كاتب نمساوي (1875 ـ 1926).

سبب إحساسنا فيها بالأمان، وعمّا إذا كان ذلك ناجماً عن جدرانها القديمة، ومنازلها القديمة أو عن الروح.

«لم نتحدث بما فيه الكفاية. كان في وسعنا فعل ذلك، خلال نزهة نقوم بها على متن مركب العبور الجديد «راديسون» بين مدينتي «كيبيك» و«ليفي». أو على «دوق أورليان» صوب جسر «كيبيك» أو شاطئ «سانت - بيترونيل». لم أستغل الوقت أبداً، في الصيف، للقيام بتلك النزهات في النهر على متن السفينة.

«كدت أنسى أن أقول لك فيما يخص «باشيلار» الذي كان يحلم بالكلمات عندما كان صغيراً، واستمر يحلم فيها مستقبلاً، ثم اعتاد، قرب النهاية، البحث عن نظير مذكر للكلمة المؤنثة، وبالعكس، كي لا تشعر الكلمات بالوحدة.

«لن تصدقيني، ولكنني لم ألج قط مخزن الكتب الإنكليزية في شارع «سان - جان» لرؤية ما إذا كان في الوسع العثور هناك على أعمال «سالينجر» بلغتها الأصلية، والأسوأ هو أن قدمي لم تطأ، منذ عشر سنوات، مكتبة «بوكينيست» الصغيرة في شارع «دي جاردان».

«إنني قلق بشأن الرسوم. أقصد الرسوم بشكل عام. أليست متقاربة في معرض؟ ولماذا لا تُعرض لوحة واحدة كل مرّة...؟ أعرف أن هذا أمر مضحك، وأنا عاجز عن التفسير الجيد، لعل الهام، هو إمكان تأمُّل كل لوحة دون شرود. و«ڤلامينك»، يحزنني التفكير في أننا لم نستغل الوقت للتحدث عن «ڤلامينك». إنني أستعجل، وعليّ أن أقول بعدُ كلمة عن رسام من «روبيرڤال». لا يستطيع، العمل عندما لا تثلج السماء: يجلس تحت إحدى الأشجار ويقول إن روحه تتنفس على نحوٍ أفضل.

«ختاماً، اترك لك رسالة من أجل الدكتور «غروندان». إنه يأتي،

غالباً، إلى «معهد الأبحاث القلبية». قولي له، ببساطة، إن الحدْس هو من سيقوده إلى الحقيقة، لأن الحدس ناجم عن الروح، ولكن افعلي ذلك بأقل ما يمكن من ادّعاء. وقولي له أيضاً، إنني أتحمّل، الآن، مسؤولية نفسي كاملةً. هذا كل شيء. كما يسعك إبلاغه، إذا شئت، أن يديه جميلتان، إذ فاتني الوقت دون أن أقول له ذلك.

«ختاماً إذاً، سأترك، كما قلت لك المصباح مشتعلاً. الأسوأ، هو الإحساس بالوحدة. لا أحس بالوحدة لأنني مع «شارلي ـ الحوت الأزرق» لما تبقى من عمل».

مع المودة،

نويل.

* * *

قال الدكتور «غروندان»:

ـ انقطعت أخبارك عنا. فتوقفت، عندك، عبوراً.

ـ ادخل، سأشعل المصباح.

أشعلت المصباح القريب من الباب وتنحيت لأمرّه. قال:

ـ شقتك عالية!

ـ أمكث قريباً من السماء.

ـ خيبةٌ؟

لم أحد جواباً. أخذ يضحك بصوت جد خفيض، يداه في جيبيه، ينظر فيما حوله قلت:

ـ ولكنك لا تبدو لاهثاً حتى.

- إنني في أحسن حالة، وأنت؟

- ألا ترغب في الجلوس؟

استمر يستكشف المكان.

- كنتَ في العتمة؟

- كنت أتأمّل السفن.

إذ توقف، منحنياً، أمام النافذة. قال:

- منظر بديع.

- يُشاهد جسر الجزيرة.

- أجل.

- نهاراً، يمكنك رؤية جبال «شارل فوا». حيث كان بودي أن أعيش.

- أنا أيضاً.

- ويخيل لك، عندما يكون الجو صحواً، إنك ترى حتى «كوت نور». هل تعرف أغنية «ڤينيو»: شمال الشمال؟

- طبعاً.

شرع يمشي ثم توقف إزاء اللوحة: شجرة مكتنفة بالضباب. لوحة دون إطار.

قال:

- تعجبني كثيراً.

- أنا كذلك. ولكنك لا تراها جيداً.

- لماذا؟

ـ لأنها صورة مائية، ولابد من رؤيتها تحت نور النهار.

ـ حينئذ؟

ـ الضباب حول الشجرة، انظر جيداً.

دنا، قائلاً:

ـ ثمة بقع ملونة. حمراء وصفراء.

ـ تحت نور النهار، كأن الشمس تخترق الضباب.

ـ مفهوم.

ـ لذلك يظهر جذع الشجرة هكذا جلياً.

ـ إنها شجرة بتولا، أليس كذلك؟

ـ بلى.

شارداً، لامس، بأنامله الندبة القديمة في الجهة اليمنى من الرقبة.

ـ أنا واثق من أن الرسام هو امرأة وقد عانت من متاعب مع رجل. قرأت أشياء كثيرة عن الأشجار. وأقول أيضاً إنها فتاة يافعة، جدّ يافعة. فهل أنا مخطِئ؟

ـ لا أدري.

تفحّص أسفل اللوحة قائلاً:

ـ لا أستطيع قراءة التوقيع. ما هو اسمها؟

ـ ما عدت أذكر. ألا ترغب في الجلوس؟ سأقدّم لك القِرى[1].

تراجع خطوتين وقال بصوت هامس، كأنه يخاطب نفسه:

---

(1) ما يقدم للضيف. م.

ـ إنني واثق من أنها عانت من متاعب مع أحد الرجال. ماذا قلت؟

ـ ألا ترغب في الجلوس بضع دقائق؟

ـ بسرور.

جلس على الكنبة وشبك قدميه فوق منضدة وطيئة.

ـ ماذا أقدّم لك؟.. قهوة؟.. كونياك؟

ـ كونياك.

ـ سأعدّ لنفسي قهوة في الوقت ذاته.

ـ ممنوع. إذ لا يسمح، في مثل هذه الساعة، إلا بكأس من الكاكاو.

ـ تذكّرني بأبي.

فردّ بالنبرة نفسها.

ـ شكراً.

سكبت له كأساً من الكونياك، ثم توجهت صوب المطبخ. كان من الصعب عدم التفكير في «**شارب نسله العتيد**».

عدت إلى البهو وجلست على متكأ النافذة، لرؤية أضواء مراكب العبور الصيفية تنساب فوق الماء. سألني الدكتور «غروندان»:

ـ إيليز نائمة؟

ـ كلا.

ـ أهي في البيت؟

ـ كلا.

احتسيت جرعة كبيرة من الكاكو.

ـ هل خرجت؟

ـ ليس بالضبط.

سُمع صفير ناعم تبعته، في الحال، ضجة مخنوقة. كان لابد من إرهاف السمع بسبب ضوضاء الناس في «التيراس». كنت أعرف، دون أن أنظر، أن مركب عبور «كيبيك» قد أصدر الأمر برفع جُسَيْر النزول، وإن هذا الأخير لطم هيكل السفينة. كانوا يرخون الحبّال.

ـ إذن، رحلت؟

ـ وهو كذلك؟

ـ معذرة. كيف حصل؟

ـ في الساعة الثانية صباحاً. سيارة «كاديلاك» سوداء. ثلاثة رجال مقنعون ومسلحون بالرُشيشات. اختفت السيارة بأقصى سرعة.

شرب الجرّاح جرعة. كان يدع الكونياك يتسخن في فمه، قبل ابتلاعه أضاف إلى كلامي:

ـ ويطلبون فِدية.

فقلت:

ـ لقد رحلت مع لاعب الهوكي.

سأل بعد لحظة تأمُّل:

ـ كيف كان ردّ فعلك؟

ـ أتفكر في الرفض؟

قال بهدوء:

ـ أجِبْ.

ـ لم يكن لدي أي رد فعل. هل اطمأن بالك؟

أشعلَ سيجارة. نظرتُ إلى السفينة الأخرى التي كانت تدنو، ببطء، من «كيبيك». قال:

ـ معذرة. أحاول فهمك فقط. إنك إنساني ذكي، ستتجاوز المحنة.

ـ الذكاء، كما تعلم...

ـ أتشك في الذكاء؟

ـ عندما تغيب الشمس، تكون السماء أجمل، هل لاحظت ذلك؟

لبث ساكتاً لحظة طويلة. أخيراً قلت له مجازفاً:

ـ ثمة العديد مِنْ مرضاك مَنْ... في أثناء الشتاء.

تجمدت كأسه في منتصف طريقها إلى الشفتين:

تابعتُ:

ـ ... من لا يتحملون.

ـ صحيح.

ـ حياتك أيضاً، ليست سهلة.

شرب جرعة.

ـ وكأن جزءاً مني يموت، كل مرّة.

ـ أيصعب القبول بذلك؟

ـ أجل، ولكن هناك الآخرين جميعاً، الناس الذين يموتون، كل يوم، لعدم توفر قلب جديد أقدمه لهم. إنه لأمر أشد مضاضةً.

ـ اسمع، ألا ترغب أحياناً في عدّ نفسك إلهاً؟

ـ بَلى.

وأخذ يضحك. فقلت بعد لحظة:

ـ إنني الآن أكبر مرضاك سناً، أليس كذلك؟

ـ تماماً.

نظر إليّ، نظرة قاسية مزيفة، وتابع مفرّقاً المقاطع:

ـ يحمّلك هذا نوعاً من مسؤولية أخلاقية.

ـ إنني أبذل أقصى جهدي.

ـ يوجد وراءك طاقم كامل من الباحثين. ومصلنا الجديد أشدّ فعّالية بكثير.

ـ أعرف جيداً. معذرة، ولكنني، مع ذلك، أشعر بالوحدة.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. ربما لأن الموت أمر شخصي. الناس جميعاً، يموتون، ولكن التفاصيل هي شخصية. في الحقيقة، إنها مسألة تفاصيل.

قال:

ـ لست مرحاً كثيراً. هل بإمكاني سكب كأس آخر من الكونياك؟

ـ طبعاً.

نهض، تناول الزجاجة من فوق الطاولة وسكب لنفسه قليلاً من الكونياك. ثم عاد يجلس قبالي في الطرف الآخر من النافذة، وسأل، ناظراً إلى النهر والأنوار المنعكسة في الماء:

ـ هل تحب مدينة كيبيك كثيراً؟

ـ إنها قصة قلب.

ضحك في شبه الظل. فسألته فجأة:

ـ هل في وسعي أن أقول لك شيئاً تافهاً؟

ـ إذا شئت.

ـ لا أدري لماذا، ولكني أشعر، عندما أراك، بأنك ستساعدني على إدراك كل شيء. أنتظر هذه العبارة التي ستأتي لتوضح كل شيء تماماً مثل...

فتابع:

ـ... مثل الشمس التي تبدّد الضباب في لوحتك؟

ـ نعم.

ـ مفهوم.

ـ أعتقد أن هذا أمر طفولي للغاية.

ـ تعرف أن الجميع بصدد البحث عن أب. لتبجيله أو لقتله. كيف حال قصتك؟

ـ ما عادت تتقدم أبداً.

ـ لماذا؟

ـ وقع ذلك، بعد عدّة أيام من رحيل إيليز. إذ أدركت، بغتة، أن المسافة ما عادت موجودة.

ـ المسافة؟

ـ المسافة ما بين الكاتب والراوي. نشعر بها، عادة، لأن وجودها يبعث على الطمأنينة ويتيح للكاتب الحفاظ على ذاته والمتابعة. هل تفهم؟

ـ وبعد؟

ـ لا شيء، بعد. الآن، انعدمت المسافة.

تأمّل النهر قائلاً:

ـ الكتابة، مغامرة غريبة. أسائل نفسي...

ـ عن ماذا؟

ـ عمّا إذا كان كل ما تشعر به غير ناجم ببساطة عن كونك تكتب.

قلت ساخراً:

ـ أن تكتب، هذا يعني أن تملك قلب فتاة يافعة.

فعاتب:

ـ لست جاداً.

ـ قلت ذلك، لأنها عبارة جميلة.

مرّر ظاهر يده على جبهته. فسألت:

ـ هل يسعني، ما دمنا في هذا الصدد، أن أطرح سؤالاً عجيباً؟

ـ في هذا الصدد...

ـ الفتاة اليافعة، هل كنت تعرفها؟

ـ الفتاة اليافعة...؟

ـ التي حصلت على قلبها.

ـ عرفتها قليلاً. لم يباغتني سؤالك. أمّا ما يدهشني فهو انتظارك الطويل قبل أن تطرح هذا السؤال.

ـ إنني متوتر الأعصاب، أقصد: لا أفكر في الأشياء أبداً، في الوقت المناسب. ما هو اسمها؟

ـ سر مطلق. مطلب ذويها. يمكنني القول إنهم أناس جدّ طيبين.

ـ لا تستطيع أن تذكر لي اسمها؟

أجاب بعد وهلة تردد:

ـ شارلوت.

ـ كم كان عمرها؟

ـ خمس عشرة سنة، بالضبط.

ـ جدّ فتية. نصف عمري.

ـ دون شك ولكن... معذرة. فلقد كانت أنسجتها منسجمة تماماً مع أنسجتك، فاعلم.

ـ ألا يدعو هذا إلى الدهشة قليلاً؟

ـ كلا، ليست المسألة في السن حقاً.

ثم أردف مبتسماً:

ـ إذ لا سنّ لمن يمنح قلبه.

كان القلب يخفق في صدري بسرعة شديدة، فوجب عليّ الانتظار دقيقة ريثما أهدأ. كان الجراح يترقبني بطرف عينه. أوصاني:

ـ خذ الأمور بهدوء.

فأجبت بقليل من القحة:

ـ أجل، دكتور.

واحتسيت، ببطء، «الكاكاو» مستوضحاً:

ـ كيف ماتت؟

ـ في حادث دراجة نارية.

استغرق الجواب منه وقتاً. أضاف:

ـ كانت تحب الدراجات النارية كثيراً.

ـ أنا، أيضاً، أحب الدراجات النارية. إنه لافت للنظر.

ـ ما هو اللافت للنظر؟

ـ أحس جيداً بأن الكلام عن هذا الحادث يعني لك شيئاً. أمّا بالنسبة إليّ فيمكن القول وكأنها لم تمت حقاً.

ـ أفضّل أن لا تقول هذا.

ـ لماذا؟

ـ لا لشيء. أفضِّل، والسلام.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. إنها، فقط، طريقتك في معالجة الأمور.

لم أكن أفهم كثيراً، ولكني التزمت الصمت. يُعتقد أن الناس محصنون تحت دروعهم، ثم يبدو الأمر عكس ذلك.

وقال متابعاً:

ـ في وسعي، إذا شئت، تزويدك بالحديث عنها.

ـ طبعاً...

ـ كنت أرغب في التحدث إليك، عن ذلك، ولكني لم أجرؤ على الإقدام عليه. منتظراً أسئلتك.

ـ إن أعصابي متوترة. هل كانت جميلة؟

ـ جداً. لاسيما، عيناها. عينان واسعتان وجدّ...

أكان يبحث عن كلماته، أم أنه انجرف مع ذكرياته. أمضى وقتاً في تصوير الفتاة اليافعة، بصوت فَقَد حزمه المألوف. صوت شبيه بخمر بيضاء وقد تعتقت دهراً. مستعيداً هدوءه، أضاف أخيراً: جداً.

ـ «كونياكك» فعّال.

وضحك هازئاً كأنه يعتذر.

قلتُ:

ـ إنك مُتْعَب.

ـ إنني في أحسن حالة.

أفرغ كأسه بجرعة واحدة. ثم نظر إلى الساعة في معصمه، قائلاً:

ـ ينبغي عليّ السفر إلى مونريال.

أجبت، بعد التطلع إلى الساعة الجدارية:

ـ الساعة الآن، الحادية عشرة.

ـ الحادية عشرة؟ لابد من الانصراف.

ـ دقيقة واحدة فقط. بودي أن أسألك سؤالاً آخر.

شبك ذراعيه وعاينني بتأن مطلق سائلاً:

ـ تريد معرفة طبعها؟

أجبت مباغَتاً قليلاً:

ـ نعم.

أشعل، ببطء، سيجارة أخرى. لم يكن يهتز لهب قدّاحته.

ـ كانت هي الرقّة بعينها. كان يسعكما أن تكونا متفاهمين كثيراً، على الرغم...

ـ على الرغم من فرق العمر؟

ـ معذرة.

ـ لا تنسَ، أنني لم أكن رقيقاً دائماً.

ـ صحيح؟

ـ صرت ما كانتْه هي، أليس كذلك؟

تطّلع إليّ دون رد. بدأت أرتاب في أمور غابرة. قفز سؤال قديم إلى السطح.

ـ دكتور «غروندان»...

ـ...

ـ طرحت عليّ، قبل الإقرار بأن قلب تلك الفتاة يناسبني، جملةً من الأسئلة. هل تذكر؟

ـ أجل.

ـ لا سيما، عما كنت أكتب، أليس كذلك؟

ـ طبعاً. وبعد؟

ـ ألم تحاول، مصادفة، أخذ انسجام الطباع بالحسبان؟

نهض قائلاً:

ـ اسمع. ألم أشرح لك قبلاً، إن القلب ليس سوى عضلة، بمثابة مضخة؟

ـ شرحت ذلك، ولكن...

ـ جيد، ولم أزل مصراً على رأيي.

ـ معذرة.

أضاف مستدركاً بصوت تنغّم قليلاً:

ـ فلنفترض بأنني أسائل نفسي بعض الأسئلة:

واسترسل كأنه يجيب عن سؤالي:

ـ نعم، وبسببك على نحو خاص، والآن، يجب الانصراف فعلاً. شكراً على الكونياك.

انحنى كي يطفئ السيجارة في المنفضة، وتوجه صوب الباب. فقلت:

ـ سؤال أخير. سؤال غبي.

يده على قبضة الباب، استفسر:

ـ ماذا؟

ـ هل أخذت، في أثناء عملية الازدراع، قلبها بين يديك؟

ـ دون ريب.

ـ هل كنت تحس بأنك تحمل طائراً؟

فتح الباب قليلاً، استدار صوبي. بدا متحيراً، ثم خرج دون أن يقول شيئاً.

* * *

ظلت شارلي تتأملني، ذقنها مُسنَد إلى معصميها، حتى أنهيت كتابة الرسالة.

قالت:

ـ سيستغرق ذلك منها دهراً.

ـ ماذا؟

ـ فلأجل أن تفعل ذلك كله...

ـ قرأتِ بالمقلوب؟

فكررت:

ـ لم أكن أريد، ولكنك كتبت، في البداية، عن الطيور. سيتطلب هذا الأمر منها، عملاً يمتد مدى حياتها.

ـ أنت مُحقّة. سأكتب لها بأن تنسى ذلك كله، باستثناء «باشيلار» والقطط.

ـ كلا. سيكون هذا عملاً مفتقراً إلى الاستقامة.

ـ أهكذا تظنين؟

ـ بل أنا على يقين. هل أنت كاتب؟

ـ مُبتدئ.

ـ لماذا تكتب؟

ـ لعدم الإحساس بالذنب.

فاستفسرت، مشيرة إلى رسالة العجوز ماري:

ـ ولكنك تحس بالذنب، على الرغم من ذلك؟

ـ طبعاً.

ردت بهدوء:

ـ فهمت.

ـ أمّا أنا فلا أفهم.

ـ لدي خبرة كبيرة. لدي سيمون.

ـ إذن، أنت محظوظة جداً.

ـ لديك، أنت أيضاً، العجوز ماري. أليس كذلك؟

ـ طبعاً... ألا ترغبين، أحياناً، في الأسرة؟

تستفسر متأملة:

ـ أسرة حقيقية؟

ـ نعم.

ـ تنفع الأسرة الحقيقية، ولاسيما عند الكبر.

لم تقل ذلك لتجرحني، ولم أشعر، من جانبي، بالجرح. قلت:

ـ لابد من الانصراف، الآن.

ـ عندك سيارة؟

ـ نعم.

ـ ما نوعها؟

ـ تعرفين السيارات؟

ـ ما عدا الأمريكية. إنني «خبير» في السيارات. ما نوعها؟

ـ لماذا «خبير» في المذكّر.

ـ وما أهمية ذلك.

لم تقل ذلك في صيغة سؤال. أجبت:

ـ «سانْبيم تايغر».

ـ لماذا تتأملني هكذا؟ ألم أقل لك، إنني كنت أريد أن أكون صبياً.

ـ قلت لي ذلك. لابد من الانصراف، الآن.

ـ أفي وسعي قيادة «تايغر»؟

ـ إذا شئتِ.

ـ اسمع...

ـ يُسمع هدير مُحرِّك.

فقالت:

ـ هذه حوّامة. لاشك أنها تقلع من كاسحة الجليد في «ايبيرڤيل».
انحنت، على النافذة. إذا كانت الشمس لا تسطع على شعرها، فهذا يعني إن الشمس صارت في الطرف الآخر من الـ «شاتو». يسير النهار إلى نهايته. تلتفت إلى الوراء، باسمة، نقرّر الانصراف. أترك المصباح مشتعلاً. لا أحمل شيئاً.

تُوقِف شارلي الـ «تايغر» على حافة الجَرف. قادت السيارة أفضل مني، دون أن تدوس الكابح، مستخدمة أقصى السرعة على منعطفات «شومان سان ـ لوي» وطريق «سان ـ نيقولا» المتعرِّج.

تنزل، متهللة السيماء وتعيد لي المفتاح قائلة:

ـ لقد وصل سيمون.

تشير، بـإصبعها، إلى «الحنطور» شبه المختفي خلف الأشجار مضيفة:

ـ انظر،

ـ أين؟

ـ هنالك، قريباً من «الحنطور»: ثمة زرزور.

فقلت بصوت خفيض:

ـ لا أرى شيئاً.

ـ ماذا دهاك؟

ـ لا شيء.

ـ ألا تجد الهواء عليلاً؟

ـ جداً.

ـ وألا تجد هذا جميلاً؟

ـ جداً.

ـ البحر في جَزْر.

صحيح إن البحر في جزر. يُشاهد، من فوق الجرف، جزء من الشاطئ، الصخرة الكبيرة وشِباك صيد الحنكليس العائمة نصفها. ستدرك الشمس، باتجاه «سانت ـ أوغستان» على ضفة النهر الثانية[1]، الأفق وبدأت تضفي على مُنْحَسَر الشاطئ لوناً وردياً. لاشك إن الهواء عليل، والمشهد جميل، لكنني لا أستطيع نسيان هذا الغثيان الخفيف الذي لا يدعني منذ الصباح. وثمة، كذلك، أمور رحت أدركها، وأمور أخرى تفوتني. صرت أرى ممراً ضيقاً يبدأ، عبر الأشجار، سيقودنا إلى سفح هذا الجرف حيث سنكتشف، خلف صف الأشجار في الحديقة المهجورة، داراً للأطفال. إنها معقدة القصص العاطفية. إن هذا المشهد الذي لازمني على الدوام، وسأراه، عمّا قريب، كاملاً، ليس إلا الطفولة بعينها. الآن، عرفت:

---

(1) تقع مدينة كيبيك عند مصب نهر «سان لوران» في المحيط. م.

القطب الداخلي، كان الطفولة. أدرك، إذن، أن شارلي التي تعيش قريباً من طفولتها، قد ساعدتني على اجتياز المرحلة الأخيرة. الأطفال جميعاً، من حيث الجوهر، متشابهون. كان الطريق، حتماً هو طريق الرقة. لست متأخراً عن موعد، ولكن لم يكن في وسعي أبداً أن أعيش هذا المشهد، لأن الحياة هي العدوانية. في خاتمة المطاف، فإن طفولتي هي ما تنبذني. هذا أمر مضحك. لدي إحساس، الآن، كأني كنت أعرف ذلك دائماً. ها هو ذا ما أفهمه. ليس كل شيء واضحاً، ولكن القصص القلبية بالغة التعقيد بالنسبة إلى إنسان مثلي، فقد قلبه، وما عاد يملك سوى هذا القلب الآخر الذي ما ناسبني أو يناسبني مناسبة رائعة. كما أعتقد أن الحياة تبدأ نبذنا منذ لحظة ولادتنا. وأننا نكتفي بالبحث، خبط عشواء، عن طريقتنا الشخصية في الموت.

قالت شارلي:

ـ هلّا ذهبنا؟ وإلّا فوّتنا غروب الشمس.

تسحبني، بهدوء، من يدي. أقاوم. ثم أقول بعناء:

ـ انتظري قليلاً.

أرتعش في داخلي. أشعر بالألم في صدري وفي قلبي. أتمدد على العشب. لا يصعد، خارجاً، سوى ضحك جدّ خفيف يخمد رويداً رويداً. ثم أجلس.

تركع شارلي قريباً مني قائلة:

ـ كنت حزيناً، والآن تضحك.

ـ لا شيء. أفكار سخيفة. كنت أصدّق نفسي.

تعانقني قائلة:

ـ أحبك كثيراً، فأنت مثل سيمون.

أهمس في أذنها:

- عزيزتي «الحوت الأزرق».

- هيا نذهب الآن، من أجل الشمس.

تتناول يدي، ثانية وتقودني إلى الممر. أتظاهر بالضياع كي أسعدها. تترك، عند المدخل النصف محجوب بشجرتي صنوبر زرقاوين، يدي وتبدأ الانحدار. أتعقبها خطوة خطوة. الممر ضيق ومتعرّج وزلِق.

ألهث في الحال. أتوقف. تلتفت إلى الوراء. أتنفس عالياً. أحدر إلى قربها وأجلس على أرومة كبيرة تقطع الممر. تجلس هي أيضاً، مرفقاها على ركبتي «جينزها»، رأسها مرفوع صوب قمم الأشجار، تبدأ تنغّم، مصفّرة، غنائية «Jesus, Joy of Man's Desire». لا تلهث أبداً، تلحن الغنائية حتى النهائية بمهارة تامة. بعدئذ، أضع يدي على كتفيها لأقول لها إني جاهز. تسدّد إصبعها صوب أسفل الممر هامسة:

- انظر.

- أين؟

- هنالك، تماماً حيث تتعذر رؤية الممر.

- طيب.

- شعاع الشمس، هل تراه؟

- طبعاً.

- نحو الشمال قليلاً، ثمة «أبو زُريق».

- لا أرى.

- انظر إلى طرف إصبعي.

أنحني لمتابعة الاتجاه بدقة. أكرر بشيء من الحزن:

ـ لا أرى شيئاً قط.

ـ لابأس. لا نرى الطيور في البداية، كأننا عُمْي.

ـ قولي لي ما شكله.

ـ لا تحزن، فهو بديع. ظهره أزرق مثل السماء في الشتاء، بطنه رمادي أبيض وعلى رأسه قُنْزَعة زرقاء رائعة، وطوق أسود حول عنقه. وثمة، على جناحيه وذيله الطويل، خطوط سوداء وبقع بيضاء.

ـ ما أجمله!

ـ أجل، ولكنك، على الرغم من ذلك، حزين.

ـ هذا غير ذي شأن، الآن.

ـ سأساعدك. سأروي لك حلمي. لم أروه إلا لسيمون. هل تريد؟

ـ طبعاً، ولكن الشمس...

ـ لا أهمية لذلك، ففي غياب الشمس، تكون السماء أجمل.

ـ هذا ما أقوله دائماً.

ـ كنت أرى طيراً كبيراً أبيض يحوم فوق النهر ما بين «كيبيك» و«ليفي». إنه «الخطّاف»[1] القطبي. أحبّ الطيور إلى قلبي. ذو جناحين طويلين و«كوفية» سوداء على رأسه، ومنقار وقوائم فاقعة الحمرة. إنه من طيور الـ «غران نور»[2]، لا يتجاوز طيرانه جنوباً «خليج جيمس» أبداً. وعلى الرغم من ذلك، فهو ما كنت أحلم به. كان جريحاً، يسيل الدم على صدره الأبيض. هل سبق أن رأيت «خُطّافاً» قطبياً؟

ـ أبداً.

---

(1) الخُطّاف: طائر يشبه السنونو من فصيلة السنونيات. المنجد.

(2) المناطق القطبية في كيبيك. م.

ـ إنه الطائر المرسوم على غلاف الكتاب الذي تركته عندك. إنك لا تسمع...

ـ كنت أفكر في الدكتور «غروندان». اعذريني.

ـ هذه أول مرّة تخاطبني فيها بصيغة المفرد. إنك تفرط في التفكير، ولكنني أحبك كثيراً. تطرح، دائماً، الأسئلة، وتزيد في التفكير، أنت مثل الأطفال. كما أنك رقيق، تذكّرني بقِط.

نرغب، عندما يقول أحدهم بأننا محبوبون، في أن يدرك هذا الأحد كل شيء.

ـ كنت أفكر في الدكتور «غروندان» بسبب الرقة والموت.

ـ لا أسألك شيئاً.

ـ طبعاً، ولكن الموت هو آخر مرحلة من مراحل الرقة. الموت هو الرقة المطلقة. إنه الهدوء، والراحة. إنه السكينة وغياب الحركة.

كنت أتكلم ببطء وتمهل لأشرح على نحو أفضل. كفت شارلي، الآن، عن الحديث، ولكن رأسها مستند، منذ وهلة إلى كتفي. فقلت لأسعدها:

ـ إنه حلم بديع، ولا يحلم به على هذا النحو الرائع إلّا «حوت أزرق».

ردّت بصوت مزكوم تماماً:

ـ إنني محظوظة.

تنحنحت، مصفّية صوتها، عدّة مرات وأضافت:

ـ يحالفني الحظ دائماً.

ـ في وسعك، الآن، الذهاب إلى هناك يا «حوتي الأزرق».

تحدر بقية الممر ببطء ولكن دون توقف ودون أن تلحظ شارلي «أبو زريق» أو أي طائر آخر. نخرج، في الأسفل، إلى الرمل، الجَزْر، قد صار في أقصاه، والمنحسر الطويل للشاطئ المقسّم بالصخرة وشباك صيد الحنكليس قد احمرّ أكثر تحت أشعة الشمس الأخيرة. تقودني شارلي إلى الضفة الرملية. كان في وسعي السير مغمض العينين: كما لو كنت عائداً، إلى المنزل بعد غياب طويل. سوى أن هذا الغثيان يتصاعد، ولا أعرف إن كنت سأقدر على السير حتى النهاية. تصطحبني إلى خليج صغير حيث يتراجع الجرف إزاء غابة صغيرة. نعبر صفّ الأشجار الأول، نجتاز الحديقة المهجورة، نلتف حول شجرة صنوبر وشجرة بتولا، وعلى بعد خمسين خطوة، يظهر المنزل. واقفاً أمام الباب المشرع، يبدو سيمون، من هنا، طويلاً بعلو المنزل تقريباً. برونزي البشرة، عالي الجبهة تحت شعر أسود، أشيب اللحية، عريض المنكبين. يرتدي قميصاً أسود وبنطالاً من المخمل وجزمة تبلغ الركبتين. يتطلع إلينا.

تترك شارلي يدي، تتقدم صوبه مسرعة، تعانقه، مستندة بأصابع قدميها الحافيتين إلى جزمته. تبدو كأنها تهمس في أذنه. مكثت في مكاني خافق القلب لاهثاً. ينظر إليّ بأعصاب باردة. أشعر بنفسي شاباً ومسناً في آن واحد، كمن فقد، فجأة، كل خبرته. يصعب تفسير ذلك. إنني سعيد برؤية المنزل. إنه من خشب داكن صقّله الدهر، أصغر قليلاً مما كنت أتصور.

تلتفت شارلي وتومئ بأن أتقدم.

يشد سيمون على يدي قائلاً بصوت خشن:

- أهلاً وسهلاً بك.

- شكراً.

ـ تقول «الحوت الأزرق» إنك قمت بسفر وإنك مُتْعَب.

ـ تقريباً.

عيناه شبيهتان بعيني شارلي. يقول:

ـ ادخل، إذن واسترح.

يتنحى عن الباب. إنه يشبه صورة هيمنغوي التي كانت عندي في «كيبيك»، ولكنه يذكرني، أيضاً، بشخص آخر، عرفته ثم نسيته في أثناء الطريق.

أنحني كي أدخل، يتألف المنزل من حجرة واحدة فقط. في الوسط، ثمة منضدة جدّ وطيئة وأربعة كراس صغيرة. في أحد الأركان، سريران ضيقان مركّبان الواحد على الآخر، مع سلّم قصير. ينام «شانوان»[1] فوق السرير الأسفل. في الركن المواجه، ثمة «بيانو» للأطفال حيث تلبد دمية، تتدلى ساقاها البالغتا الطول فوق ملامِس البيانو.

تقول شارلي التي تتابع نظري.

ـ هذا هو «جيمي».

أردّ بهدوء:

ـ أعرف.

ـ وكُتُب. في كل مكان، كتب. ولكن ثمة على أحد الجدران بنادق ومسدسات، معلقة بمسامير. أعاد سيمون، دون ضجة، إغلاق الباب واستند إلى الحائط قريباً من المدخل. لم تكن الأسلحة موجودة في أحلامي، تحت السرير، ألحظ أيضاً، صندوقين خشبيين. أتطلع إلى شارلي. فتستفسر:

---

(1) اسم القط. م.

ـ هل فوجئت؟

ـ كلا.

ـ يحتوي الأول على «الديناميت»، والثاني على القنابل اليدوية القديمة.

لم أفاجأ فعلاً. حلقي ناشف، وأنا منهك عاجز عن طرح الأسئلة، يقول الحوذي بصوت هادئ:

ـ أخبرتني «الحوت الأزرق» بأنك كاتب.

فأجبت بصوت جد خفيض:

ـ مبتدئ.

ـ لقد اخترتُ طريقاً آخر، كما ترى.

ـ فهمت...

بعد لحظة، أضيف، دون أن أعرف جيداً، لماذا:

ـ إنك تحب الكتب...

تقول شارلي وكأنها تخاطب نفسها:

ـ إنه أيضاً جدّ رقيق.

أقول:

ـ لم نزل نكتب بأرياش الطيور.

يردّ سيمون:

ـ إنني عجوز، وماعدت أحب الأفكار كثيراً.

ـ أنا أيضاً.

ـ استرح على السرير.

ـ لابأس.

ـ غداً، سيفرغ المنزل.

فسألت مستلقياً على السرير الأسفل:

ـ ستنصرفان؟

ـ لابدّ من التنقّل دائماً. فإذا كنت بحاجة إلى شيء..

ـ لدي كل ما نحتاج إليه.

تقول «الحوت الأزرق»:

ـ استرح مطمئناً.

يفتح سيمون الباب ويستعدان للانصراف. ثم تلتفت إليّ شارلي قائلة:

ـ سأدعه مفتوحاً لتسمع صوت المدّ.

تضع يدها في يد سيمون الكبيرة ثم يخرجان. لم أزل أسأل نفسي عمّا إذا كان الحوذي والدها أم لا. أنادي بوهن:

ـ أيها الحوت الأزرق...!

تلتفت مرّة أخرى.

ـ إذا رأيت، ذات يوم، العجوز ماري...

ـ ماذا؟

ـ لا... لا شيء.

ترسم بيدها علامة صغيرة، ثم أراها تختفي، مع سيمون، خلف الأشجار. يتبعهما «شانوان». يُسمع صوت النهر حقاً. لابد أن المدّ آخذ في الارتفاع ثانية. أحس أنني متأخر. نسيت أن أقول للعجوز ماري بأن لا تكف عن الكتابة: فالتوقف عن هذا يؤذي الآخرين جميعاً. كما كان بودي أن أقول «للحوت الأزرق» بأنني كنت أحب قلبها كثيراً.

انهض بعناء. أذهب لإحضار الدمية «جيمي» من فوق البيانو، أضجعها على السرير. ثم أرفع غطاء أحد الصندوقين وأتناول قنبلة. انزع الوُصْلة. أدس يدي، الضاغطة على القنبلة، تحت صدريتي الرمادية القديمة. اضطجع على جنبي، مُطأطَأ الرأس، مرفوع الركبتين، يدي الثانية بين ساقيّ، يزول الغثيان، فأشعر بأنني في حال جيدة. ثمة أغنية في رأسي، ولكنني لا أذكر اسمها. كلا، فهذا، بالأحرى أشبه بغناء طير. طير طليق.



قلب الحوت الأزرق

«قلب الحوت الأزرق» قصة حب. قيل عنها ذلك ولا يزال، حتى صارت أشبه بأسطورة: تلازم أدبنا، نستشيرها، نعود إليها، نتذكرها، نرويها، نستشهد بمقاطع منها، ندرسها، نفسّر رموزها ونواياها الخفية...


دار الحصاد
سورية - دمشق - ص.ب: ٤٤٩٠
هـ: ٢١٣٤٦٩٢ / فا: ٢١٢٦٣٢٦